

البَابُ الْأَوَّلُ

دراسة تمهيدية

obeikandi.com

## الفصل الأول

### جولة مع المعري في الغفران

أبو العلاء في مجتمعه :

ينحدر أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان من أسرة عريقة في الثقافة والمجد، عرفت شعراء وفقهاء، وقضاة؛ كان « أكثر قضاة المعرة وفضلاتها وعلماؤها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان بن داود بن المطهر»<sup>(١)</sup>.

كان تأثير هذه الأسرة على تكوين أبي العلاء عظيماً، لا يقل عما اكتسبه من رحلاته، لقد طاف بالعواصم العلمية وزار مكباتها، وأخذ عن من كان بها من شيوخ أعلام واطلع على تأليفهم، فأصبح لغويًا بارعًا وأديبًا متميزًا، كما أتقن معارف عصره، من فقه ومنطق وفلسفة.

ومما يستوجب التأكيد قوة تأثير « المعرة »<sup>(٢)</sup> والمعريين في تكوين أبي العلاء. فقد كانت المعرة منذ القرن الرابع الهجري حتى القرن السادس تعج بالقراء والمفسرين والمحدثين واللغويين والمؤرخين والشعراء والمؤلفين في علوم مختلفة. ومما يروى، أن ثمانين شاعرًا رثوا أبا العلاء يوم وفاته، ولم يكن أحد منهم غريبًا عن المعرة<sup>(٣)</sup>.

عاش صاحبنا بحلب، وتلمذ على مشاهيرها، وزار أنطاكية (وكانت إذ ذاك تحت حكم الرومان)، فاطلع على ذخائر مكتبتها الشهيرة؛ وعرج على اللاذقية،

(١) سليمان بن داود هو الجد الخامس لأبي العلاء. ابن العديم، الانصاف والتحرى.

(٢) مسقط رأس أبي العلاء (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ) تقع بين حلب وحماة.

(٣) انظر سليم الجندى تاريخ معرة النعمان. المعرة، في اللغة: الإثم، والأذى، والجناية، وتلون الوجه من الغضب، والمعرة أيضاً: الأرض الجرداء (ج ١ ص ٥٥). مثل هذه الأوصاف، ينفر النفس، وقد كان الناس يعيرون سكان المعرة كما جاء عند أبي العلاء في دفاعه عنها:

يُعَيِّرُنَا لَفْظَ الْمَعْرَةِ أَتُنَا      مِنْ الْعَرِّ، قَوْمٌ فِي الْعُلَا غُرَبَاءُ  
وَقَلَّ لِحَقِّ التَّثْرِيبِ سَكَانُ يَثْرِبٍ      مِنْ النَّاسِ، لَا بَلَّ فِي الرِّجَالِ غَبَاءُ

(اللزوميات، ص ٤٦، القاهرة، ط. المحروسة، ١٨٩١).

فنزّل بأحد أديرتها، واستمع إلى راهب مولع بالأبحاث الفلسفية والعلوم الدينية، ثم انتقل أخيراً إلى طرابلس الشام، قبل أن يقدم بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية.

لم تكن بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وحسب، ولكن كانت كذلك، مجمع التيارات الفكرية، يتواجد فيها اللغوى، والنحوى، والفيلسوف، والمتكلم، والمحدث، والمفسر... على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم. فساحت فرصة موافقة لأبي العلاء لسمع كثيراً، ويستسيغ كثيراً، ويصقل ذهنه كثيراً. ولم يقف عند الأخذ، بل أسهم في مناقشات المجالس، فذاع صيته، والتفتت إليه أنظار الخاصة والعامة حتى أصبح محل التجلّة والإكرام، مما حرك حقد الحسدة عليه فبدءوا يجرّون له المكاييد، وينغصون عليه الحياة. دفع الطموح وقوة الشخصية الواعية أبا العلاء إلى أن يستغل كل إمكاناته في تحقيق أمانيه، فاستقر رأيه على استيطان بغداد، لكنه لم يمكث بها إلا سنتين (من ٣٩٨هـ إلى ٤٠٠هـ)، فحين لم يجد ما كان يتوقّعه، عاد إلى مسقط رأسه.

هكذا استخلص أبو العلاء من تطوافه تجربة مرة ومفيدة في آن واحد، سيكون لها التأثير العميق على اتجاهه في باقى حياته. مما جاء في رسالة كتبها إلى خاله أبي القاسم:

«ولما فاتنى المقام بحيث اخترت، أجمعت على انفراد يجعلنى كالظبى في الكناس، ويقطع ما بينى وبين الناس، إلّا من وصلنى الله به وصل الذراع باليد والليلّة بالغد»<sup>(١)</sup>.

ما هى أسباب مغادرة أبي العلاء بغداد؟

علل المؤرخون ذلك بالنبا الذى حمله إليه البريد عن مرض أمه. إنه تعليل وجيه، خصوصاً وأننا نعرف مقدار تعلق أبي العلاء بأمه، إلّا أننا نرتضى سبباً آخر

(١) انظر: شاهين عطية، رسائل أبي العلاء المعرى: ص ٨٠، بيروت ١٨٩٤. انظر كذلك تعريف القدماء بأبي العلاء (مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود، وعبد السلام هارون، وإبراهيم الأبيارى، وحامد عبد المجيد، تحت إشراف طه حسين، ص ٩١ ط. دار الكتب، القاهرة ١٩٤٤.

ليس أقل احتمالاً من الأول : نفور أبي العلاء من بيئة بغداد المتأججة بالحسد تكالِباً على المناصب. لعل ذلك هو ما جعل صاحبنا يختار العودة إلى المعرة لينعزل عن جو الدسائس والحسدة والمغرضين، ويكرس جهوده للأدب والعلم، يخدم الناس عن بعد، بمعارفه، وانتقاداته.

تلك صدمة ثانية كبرى يصاب بها أبو العلاء كان لها أكبر الوقع في نفسه<sup>(١)</sup>. ولم يمهله الدهر، فقد أبي إلا أن يردفها بثالثة، ألا وهي نعي أمه، حبيته الحميمة والوحيدة، اهتز لها كيانه، فامتلاً وجدانه شعوراً بالضياع والعزلة في العالم، حتى لقد استعجل الموت للقائها، وهجر الحياة لفراقها، فأصبح كالرضيع مرهف الشعور، واهن القوى:

مَضْتُ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخِلْتُ أَنَّ رَضِيعٌ مَا بَلَغْتُ مَدَى الْفِطَامِ  
سَأَلْتُ مَتَى اللَّقَاءَ فَقِيلَ حَتَّى يَقُومَ الْهَامِدُونَ مِنَ الرَّجَامِ  
فَلَيْتَ أَذِينَ يَوْمَ الْحَشْرِ نَادَى فَأَجْهَشْتُ الرَّمَامَ إِلَى الرِّمَامِ<sup>(٢)</sup>

لقد فقد أبو العلاء منبعاً خصباً للحب الصادق الذي كان ينساب في أعماقه، ويخفف من وطأة عاهة العمى، خصوصاً وأنه لم يتزوج ولم ينجب أبناءً، فتصدع نزوعه إلى المناصب المرموقة، وانغلقت أمامه الآفاق<sup>(٣)</sup>.

وقعت هاتان الحادثتان وأبو العلاء في سن الأربعين، أي في مفترق الأعمار، حيث تستكمل الشخصية نضجها، وتتحدد معالم الاختيار في الحياة وتبدأ المرحلة الجديدة الحاسمة في تاريخ الإنسان.

وبالفعل، تُشَكِّلُ السن الأربعون حدًّا فاصلاً بين طورين من حياة صاحبنا إذ لم

(١) الصدمة الأولى، فقد بصره إثر جدري أصابه وهو في سن الرابعة ٣٦٧هـ، لا يميز الأشياء لصغره كما يقول عن نفسه في رسالته إلى هبة الله بن موسى بن أبي عمران داعي الدعاه: «وقضى على وأنا ابن أربع لا أفرق بين البازل والربع». (انظر سليم الجندي، الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره. «أثر الجدري والعمى في نفسه»، ج ١ من ص ٦٦ إلى ص ٧٠ دمشق ١٩٦٦).

(٢) شروح سقط الزند، ج ٤، ص ١٤٢، ط القاهرة: الدار القومية للنشر، ١٩٦٤.

(٣) انظر عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) أبو العلاء المعري: الفصل الثالث «موت الأم»، ص ١٢٩-١٣٨،

القاهرة، ١٩٦٥.

يؤت الفرصة قبل لإظهار مدى ثقافته وأصالته . لقد أصبح من كبار الأدباء وعلية نخبة مثقفي عصره .

انعزل أبو العلاء عن ضوضاء المجتمع ، وعكف في بيته على الدرس والتأليف . فعاش ما سماه هو نفسه ، بفترة «رهين المحاسن الثلاثة» :

أراق في الثلاثة من سجون فلا تسأل عن الخير النبيث  
لفقدى ناظري، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث<sup>(١)</sup>

بيد أن خلوته لم تكن خلوة الأديرة، إذ غدا بيته محجاً لرواد العلم والأدب، يأتون إليه كما يذهب المثقفون اليوم إلى ناد أدبي . فأخذ بعض الرواد يروجون آراءً علائقية في شتى الميادين، وخاصة ميدان نقد المجتمع، والملل والنحل، والشرائع، وأوها بعضهم سوء تأويل، فرمى المفكر الرائد بالزندقة والإلحاد .

حقاً، اهتم أبو العلاء بأحداث المجتمع وانفعل لمشاكل الحياة العامة، وللأوضاع المجتمعية المتفاحشة، في عهد العباسيين<sup>(٢)</sup> . فأدجمها في الاهتمامات الإنسانية المصرية، فسخر من الشره العبثى على الحياة :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد!

كما وقف حائراً أمام تناقض الخير والشر، واندesh لتعلق الناس بالغيبيات تعلقاً يجعلهم يخاصمون من ليسوا على اعتقادهم، كأنهم مقتنعون بكيفية مطلقة، أن الحقيقة هي ما يعتقدون هم وحدهم، مما كان مدعاة للصراع المذهبي وتسفيهاً للواقع المضطرب المخالف لحرية الفكر، يقول :

باللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح  
هذا بمطرفة يدق وذا بمثذنة يصيح<sup>(٣)</sup>

(١) اللزوميات : أبو العلاء المعري، ج ١، ص ٢٤٩، بيروت ١٩٦١ .

(٢) انظر : الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره، «طائفة من الأحداث التي وقعت في عهد أبي العلاء بالعراق وغيرها» .

ج ٢، من ص ١٠١ إلى ١١٩ .

(٣) مثل هذه الأشعار يشك في نسبتها إلى أبي العلاء لأنها لا توجد في دواوينه أو كتبه الأخرى . ومن المعروف أن شعراً

كثيراً قيل على لسان أبي العلاء من قبل خصومه للإيقاع به .

ما مصير أبي العلاء في هذا الجوّ؟

نسمع عمّا يقاسيه من محن أدباء أحرار في الكثير من البلدان، إذا صرحوا بما لا يجارى الرأى السائد، الرأى الرسمى، لدرجة أن بعضهم يتسلحون بـ«التقية» أو يهجرون ميدان الكلمة...

فلنتصور مقدار شجاعة أبي العلاء، وهو الكاتب الذى يفصله عنا ألف سنة أو ما يقرب من الألف: يزهد في الدنيا، في أموالها وجاهاها ومغرياتها زهد المقتنع بصواب الاتجاه والمذهب، لقد ترك الدنيا «دنية»<sup>(١)</sup>، كاتباً ميوله ليخلص للرأى الصريح ويرضى الضمير النظيف.

هكذا تقبل أبو العلاء الحرمان، لأنه اختار موقفاً معيناً من الوجود ومن المجتمع، فجاءت آثاره تعبيراً صريحاً عن ذلك الموقف، وشهادة على تعلقه بحرية الرأى، إلى أن مات مصون الكرامة، لم يستغل كما فعل الخاصة من معاصريه، جهد العامة ويستبّر أموالها، كما لم يسمح لنفسه مثلهم بالتلاعب بالدين ولا بتسخير العلم لتحقيق أغراض شخصية. كانت عزلته عزلة المتعالى الذى يراقب عصره وينقده دون أن يدنس يديه. فلم يكن شاعر القصور، ولا كاتب المناسبات، ولا مُتَجَرّاً بالأدب؛ بل على العكس قد سَجَرَ من مرتزقة الأدب. فلنستمع إلى الحوار الذى جاء في رسالة الغفران - بين ابن القارح وشيخ الجن - يصرح الأول:

«لقد شَقِيْتُ في الدار العاجلة بجمْعِ الأدبِ، ولم أُحْظَ منه بطائل، وإنما كنتُ أَتَقَرَّبُ به إلى الرؤساءِ، فَأَحْتَلِبُ منهم دَرّاً بكىءِ، وأجهدُ أخلافَ مَصُورٍ<sup>(٢)</sup>. ولستُ بِمُوفِقٍ إِنْ تَرَكْتُ لَذَاتِ الجَنَّةِ وأقبلتُ أَنْتَسِخُ آدابَ الجن، ومعى من الأدبِ ما هو كافٍ، لا سِيَّما وقد شاع النُّسيانُ في أهلِ أدبِ الجَنَّةِ، فصِرتُ من أكثرهم روايةً وأوسعهم حِفْظاً، ولِلَّهِ الحمدُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) تتردد هذه العبارة كثيراً في رسالة الغفران، انظر مثلاً، الصفحات ١٤٣، ١٨١، ٣٦٢، ٣٧٥، ٣٩٥.

(٢) البكىء: الناقة البخيلة بلبنها، والمصور: البطيئة اللين.

(٣) ص ٢٩٢، ٢٩٣.

وفي صفحة أخرى ينطلق هذا السهم النافذ على لسان إبليس في حديث إلى ابن القارح :

- « مَنْ الرَّجُلُ؟ »

فيقول :

- أنا فلانُ ابنُ فلانٍ، من أهلِ « حَلَبَ »، كانت صناعتى الأدب، أتقربُ به إلى الملوكِ !

فيقول :

- بِئْسَ الصِّنَاعَةُ ! إِنَّهَا تَهَبُ غُفَّةً مِنَ الْعَيْشِ لَا يَتَسَعُّ بِهَا الْعِيَالُ وَإِنَّهَا لَمَزَلَةٌ بِالْقَدَمِ، وَكَمْ أَهْلَكَتْ مِثْلَكَ !<sup>(١)</sup>.

خاتمة المطاف :

عاش أبو العلاء بئسًا خاضعًا للواقع، وأدى ببؤسه ضريبة رفضه الاسترزاق بالدين، والأدب، والعلم، فاضطر إلى خلوة بداره في معرة النعمان، منعزلا عن الناس والمزاحمات اليومية، بما فيها من تحمس للحياة ومن شقاء. بيد أنه انعزل وبين جانبيه وجدان ثرى، وفكر ثاقب انبثقت عنها تأملات شاملة، يتجلى كل ذلك في رسالة الغفران الأثر الذي يعد من روائع الآداب العالمية. إنها تضم حصيلة أوضاع أبي العلاء ومواقفه ممزوجة بانعكاس ما أحدثت من انفعالات مختلفة : تجربة العزلة، ومعاناة العمى، وتضارب نور البصيرة المتوقدة مع ظلام عالم العاهة. فالرحلة إلى عالم ما بعد الموت، التي هي محور رسالة الغفران، محاولة لا شعورية وطبيعية من بعض الوجوه. إنها انتقال من نظرة محدودة الأفق إلى نظرة ذات آفاق بلا حدود و« هجرة » وجدانية وذهنية، من دنيا الظلام والظلم، دنيا المتناقضات والمعايير المزيفة إلى عالم بلا انحرافات وبلا تزوير، عالم يشاق إلى أبو العلاء المحروم حقا.

غير أن عالم ما بعد الموت ليس ضرورياً أن يكون عالم الصفاء والسعادة، وكأنه «مدينة فاضلة» أو «جمهورية المثل»، بل إنه عالم، كما يراه أبو العلاء نفسه، لا يخلو، هو أيضاً، من هموم ومخاوف، ومناقشات ومزاحات، كما تسجله محاورات ابن القارح.

### المعري بين المناصرين والمتقدين :

يمكن اعتبار رسالة الغفران منبعاً أساسياً للكثير من التأويلات المتناقضة التي انبثقت عليها تصور الناس لشخصية أبي العلاء المعري، وما صاحب ذلك من اتهام في معتقده، أو تبريء وتقدير لإيمانه وعلمه<sup>(١)</sup>. فمثلاً هذا سليم الجندى ينقل عن البطليوسي أن أبا العلاء كان «متديناً كثير الصيام والصدقة، تسمع له بالليل هيئة لا تفهم (...). وكان ذا عفة ونزاهة نفس»<sup>(٢)</sup>. وذلك لويس عوض يرميه بضروب الزندقة والمروق<sup>(٣)</sup>.

إننا، هنا لا نقصد أن ندخل المعمعة مع الذين يتعصبون لأبي العلاء فيتصدون للدفاع عن نظرياته حتى يغلق عليهم دفاعهم العاطفي مسالك البحث الموضوعي<sup>(٤)</sup>؛ كما أننا لن ننزلق مع الذين تناسوا فضله على الثقافة العربية فبخسوه حقه. ولكن سنعمل على دراسة مضامين الغفران بالقدر الذي يسمح لنا بمعرفة أسباب تميزها بلغة خاصة وتراكيب متميزة دون التصدي لتقييم مضامينها، لأن ذلك يُخرجنا عن الهدف الذي نسعى إليه.

### مضمون رسالة الغفران :

يقف الدارس لرسالة الغفران مندهشاً أمام الموضوعات المتنوعة التي تزخر بها الرسالة، معجباً بالإطار الفني الذي صاغ فيه أبو العلاء تلك المواضيع البالغة

(١) انظر طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، المقالة الثالثة «اتهامه بالزندقة» ص ١٥٩، ط ١ القاهرة، ١٩٦٨.

(٢) الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ج ١ ص ٤٣٢.

(٣) لويس عوض على هامش الغفران، دار الهلال ١٩٦٦، تولى الرد على لويس عوض وتخطى آرائه محمود محمد

شاكر في كتابه «أباطيل وأسار في الرد على هامش الغفران»، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٤) أحمد تيمور أبو العلاء المعري نسبه وأخباره - شعره - معتقده، القاهرة ١٩٧٠.

التعقيد، إذ ذاك تلح عليه أسئلة شتى، يبقى معها في حيرة، ويصعب عليه التسليم بكون الغفران مجرد جواب عن رسالة تلقاها المؤلف من ابن القارح، إذ لا يتوقع أن ينتج عن الرد على نقط محدودة في صفحات معدودة، جواب من مستوى «رسالة الغفران» الكثيرة الصفحات، العميقة المضمون، المتشعبة الجوانب.

فما الأسباب التي حفزت أبا العلاء على اختيار ذلك النهج؟

سؤال آخر تطرحه الرسالة شكلاً ومضموناً: ما وضع رسالة الغفران بين آثار أبي العلاء المعري الزاخرة؟

نعني ماذا يميزها عن غيرها من الرسائل والمؤلفات العلائية؟ عن هذين السؤالين، وما بهما من استفسارات ضمنية، ستجيب الصفحات التالية.

رسالة ابن القارح:

وردت على أبي العلاء رسالة أديب من أدباء حلب، يدعى أبا الحسن على بن منصور، ويلقب بدوخله، ويعرف بابن القارح (٣٥١-٤٢٣هـ) غادر هذا الأديب حلب مدة، ثم وردھا، فشعر بغربة لفقدان المعرفة والجار:

«وردت حلب ظاهرها، حماها الله وحرسها بعد أن مُنِيْتُ بِرَبِّضِهَا ( . . . ) فلما دخلتها، وبعدُ لم تستقر بي الدارُ، وقد نَكِرْتُهَا لفقدان معرفة وجار، أنشدتها باكيّاً:

إذا زرت أرضاً بعدَ طولِ اجتنابِها فقدتُ حبيباً والبلادُ كما هيا»<sup>(١)</sup>

ومن قبيل المصادفات أن أبا الفرج الزهرجي كاتب نصر الدولة كتب رسالة إلى أبي العلاء، وكلف ابن القارح بإيصالها إليه فسرقت منه، فوجدها ابن القارح فرصة ليكتب إلى أبي العلاء، ليعتذر إليه ويث أحزانه:

«كان (أبو الفرج الزهرجي) كاتب حضرة نصر الدولة - أدام الله حراسته - كتب رسالةً إلى أعطانيها، ورسالةً إليه - أدام الله تأييده، استودعنيها، وسألني

إيصالها إلى جليل حضرته، وأكون نافثها لا باعثها، ومُعَجَّلَهَا لا مؤجَّلَهَا، فسرق عديلي رَحْلًا لِي، الرسالة فيه، فكتبت هذه الرسالة أشكو أموري، وأبث شُقُورِي، وأطلِعُهُ طَلْعَ عَجْرِي وبَجْرِي، وما لقيتُ في سَفْرِي من أقيَومٍ يَدْعون العلم والأدب، والأدبُ أدبُ النَّفسِ لا أدبُ الدرس، وهم أصفار منها جميعًا وهم تصحيفاتُ كنت إذا رَدَدْتُهَا عليهم، نَسَبُوا التَّصْحِيفَ إِلَيَّ، وصاروا إلبًا عليَّ»<sup>(١)</sup>.

بدأ ابن القارح رسالته بالحمد والثناء على نعم الله، وبذكر شوقه إلى أبي العلاء وحنينه إلى لقائه حنين: «الظَّمَانُ إلى الماء، والخَائِفُ إلى الأَمْنِ...»<sup>(٢)</sup>.

ثم تصدى إلى انتقاد أخلاق بعض الشعراء والأدباء، ممن كانوا يتهاونون في الدين، ويدمنون على شرب الخمر، وقول الغزل، كالمتنبي، وبشار، وصالح بن عبد القدوس، والصناديقي والوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحلاج، وابن الراوندي، وابن الرومي، وأبي تمام والمازيار. وقد كان هؤلاء وأمثالهم في نظره لا محالة من الخالدين في جهنم.

وبعد أن تعرض ابن القارح لهؤلاء القوم المذنبين، أخذ في استفسار أبي العلاء عن الزندقة والتصوف، والفقه، والنحو، واللغة، وأمور الدين، ثم انتقل إلى التشكي من الزمان وأهله، قبل أن يعمد إلى مدح مخاطبه والثناء على علمه وفضله، وعلى ما سمعه من رسائله. وختم بذكر طائفة من أنبائه الخاصة: لقد تغيرت حاله لكبر سنه، وقصرت قدرته عن الكتابة والدرس. وعانى الكثير من ابنة أخته التي سرقت دنائره. وأخيرًا اعتذر عما في رسالته تلك من خلل أو زلل، واستعطف أبا العلاء بالأب يخل عليه بالجواب.

(١) رسالة الغفران، ٢٦-٢٧.

الشقور: الحاجة، وهم، واحده شقر (بفتح فسكون).

العجر والبجر: العيوب والهموم.

(٢) رسالة الغفران، ص ٢٢.

## ماذا كان الجواب؟

من هذا المنبثق، تفجرت قريحة أبي العلاء، فسبك عالماً أطره الجنة والنار، وسكانه الأدباء والشعراء والنحويون واللغويون.

إن أول ما يفاجئنا هو أن أبا العلاء يبدو متفائلاً (أو على الأقل أكثر تفاؤلاً من مراسله ابن القارح). نعم، جاءت رسالة الغفران تُوقِّع على نعمة العفو الإلهي والمغفرة، وتعلن عن أن كثيراً من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين قد ينعمون بالجنة، خلاف ما يصرح به بعض المتزمطين من الفقهاء، إذ يحشرونهم في جهنم، دونما رحمة ودونما تردد. فقد يكون أكثرهم من أهل الجنة لصدق إيمانهم بالله، أو لما قدمت يداهم من معروف بنية خالصة، وإن صدرت عنهم أعمال غير صالحة. فمشاهدة الظاهر لا تكفي للحكم على الناس بالنار، واتهامهم بالإلحاد والزندقة.

ولتبيان ذلك، كان لزاماً على أبي العلاء أن يتخذ موقفاً من الفقهاء المتعتين الذين يتهمون الناس في سلوكهم وأعراضهم وإيمانهم، ويضيقون النطاق على حرية الرأي. فلتأمل، مثلاً ما ساقه على لسان «حسان بن ثابت»<sup>(١)</sup> تعليقاً على قصيدته التي يمدح فيها الرسول ﷺ، يقول:

«ويعر (حسان بن ثابت) فيقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن ألا تحددت معنا ساعة؟

فإذا جلس إليهم قالوا:

«أين هذه المشروية من سبيتك التي ذكرتها في قولك؟:

كأن سبيته من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها، أو طعم غص	من التفاح هصره اجتناء
على فيها، إذا ما الليل قلت	كواكبها ومال بها الغطاء
إذا ما الاشربات ذكرن يوماً	فهن لطيب الراح الفداء

(١) شاعر مخضرم وشاعر الرسول ﷺ، مات في خلافة معاوية.

ويحك!! أما استحيت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله ﷺ؟  
 فيقول: إنه كان أسحج خلقاً بما تظنون، ولم أقل إلا خيراً. لم أذكر أني شربت  
 خمرًا، ولا ركبت مما حظر أمرًا، وإنما وصفت ريق امرأة، يجوز أن يكون حلالاً لي،  
 ويمكن أن أقوله على الظن، وقد شفّع ﷺ في «أبي بصير بعد ما تهكم في مواطن  
 كثيرة، وزعم أنه مُسْتَرٌّ<sup>(١)</sup>، مفترياً أو ليس بمفتر. وما سمع بأكرم منه ﷺ: لقد  
 أفكت فجلدني مع (مسطح)<sup>(٢)</sup>، ثم وهب لي (أخت مارية) فولدت لي  
 (عبد الرحمن) وهي خالة ولده إبراهيم»<sup>(٣)</sup>.

هكذا يعلنها أبو العلاء حرباً شعواء على أولئك الجامدين، أحياناً بسخرية مرة،  
 وأحياناً بشيء من المرح يقتضيه التهكم<sup>(٤)</sup>.

إن السبب الظاهر لتحرير رسالة الغفران هو الإجابة عن رسالة ابن القارح،  
 غير أن أبا العلاء كان يرمى إلى أبعد من ذلك، فلو كان يود مجرد الجواب لفعل في  
 سطور، أو صفحات قليلة، ثم إن المستقري لرسالة ابن القارح لا يعثر فيها على  
 ما يستدعي الحديث عن الآخرة، في إطار خيالي، إذن رسالة الغفران ليست جواباً  
 بقدر ما هي تحفة فنية ولغوية، أملاها أبو العلاء منتهزاً فرصة خطاب ابن القارح،  
 فانساق للمباهاة بالبراعة اللغوية، ووفرة الثقافة الأدبية، وإن التباهى بالمعرفة كان  
 عادة متبعة في عصره، وكثيراً ما يظهر ذلك في فن المراسلة الذي شاع في القرن  
 الرابع للهجرة، حتى إن كل الكتاب تطرقوا لهذا الفن، فألفوا الرسائل المختلفة،  
 فجاءت على نوعين:

(١) تتساءل بنت الشاطي فيما إذا كانت من الاستراء بمعنى السرى أي السير ليلاً اعتماداً على ما جاء في اللسان من  
 استرى كاسرى، ولكننا لا ندرى ما العلاقة التي تبينها المحققة بين السير في الليل وسياق الكلام. ولعل الأمر يتعلق بجارية  
 زعم أنه تسراها كما يحتمل السياق.

(٢) مسطح: ابن أئانة بن عباد بن عبد المطلب شهد بدرًا، ثم خاض في حديث الإفك، فجلده الرسول، توفي سنة  
 ٣٤هـ.

(٣) رسالة الغفران، ص ٢٣٤، انظر كذلك حوار ابن القارح مع عبيد بن الأبرص، ص ١٨٥، و١٨٦ وأيضاً،  
 حديث الأعشى وكيف كانت سلامته من النار ص ١٧٧ و١٧٨.

(٤) انظر، تجديد ذكرى أبي العلاء، «السخرية» ص ٢٢١.

١ - الرسائل القصار، كرسائل الخوارزمي<sup>(١)</sup>.

٢ - الرسائل الإخوانية الطوال؛ وفيها تظهر البراعة الأدبية والخصائص الفنية للأسلوب، وتمتاز بإتقان الصنعة وإحكام النسيج، وقلة السجع المتكلف، والحرص على سلامة المعنى وتنميق العرض.

لكن رسالة الغفران تتعدى، في مضمونها، شخصية المرسل إليه، إذ ترمى إلى شيء من الشمول. إنها رسالة، لا في معنى مراسلة (Correspondance) أى نوع من «الرسائل الإخوانية» المعروفة آنذاك، وحسب، أو من رسائل المجاملات أو التراسل بغية قضاء حاجة من حاجات الحياة اليومية. وإنما هى نوع خاص، كما سنرى. فنحن، وإن كنا نطمئن إلى ما تراه بنت الشاطىء من وضع الغفران فى ديوان الرسائل الفنية الطوال التى ورثها القرن الخامس من سابقه،<sup>(٢)</sup> إلا أننا نرى أنها بالإضافة رسالة ترمى إلى تبليغ مضمون «مذهبي»، وقد اعتمد أسلوباً لغوياً، وأدبياً، أراد أبو العلاء أن ينشر ذلك المضمون بين الناس جميعاً، وفى نفس الوقت، أن يظهر لهم مدى براعته الأدبية ومعرفته اللغوية.

إن الغفران «رسالة» فى المعنى الذى يطلق عليه اليوم «أطروحة» أى تعبير عن رؤية خاصة يشعر المعرى بوجود إيصالها إلى الغير وتعميمها بين الناس، إنها تجارب رجل عانى الحياة طويلاً. ويظهر أن رسالة الغفران أملت نحو سنة ٤٢٤ هـ وأبو العلاء فى السبعين من العمر، أى فى سن بلغ فيه تأمله درجة اكتمال النضج، واختمرت فيه معرفته بالناس وبالحياة، لقد عكف على إملائها الأعوام الطوال، راصداً خواطره، وهواجسه، سابقاً فى أحلامه وتأملاته. ومن ثمّة، كما تقول بنت الشاطىء، حملت الرسالة «طابع التأمل». وجمعت ما بين الاطلاع، والتأمل، والإخلاص للفن، وحرية التفكير، وتصوير الشهوات المكبوتة فى تفنن مثير<sup>(٣)</sup>.

(١) الخوارزمى أبو عبد الله محمد بن موسى، توفى ببغداد، ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م.

(٢) الغفران لأبى العلاء المعرى، ص ١٩٣، القاهرة، ١٩٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٤-٥٥.

## عزاء عن الحرمان :

ميزة مضمون رسالة الغفران هي هذا النزوع إلى الشمول مع براءة محكمة للتعبير عن الملاذ الحسية، على تنوع أشكالها، مما يدل على حرمان في هذه الدنيا انتقل، إلى الإشباع بالتسامي، (sublimation). نعى أن أبا العلاء قام بعملية إعلاء للطاقات الغريزية، من مستوى الشهوة إلى إشباعها بتعويضات فكرية وخيالية، في العالم الآخر.

عرف أبو العلاء حياة العزلة والحرمان، فاضطر إلى كبت ميوله. غير أنه لم يزهّد في الدنيا رغبة، بل اضطراراً. فكما يقول طه حسين: «فالذين يظنون به الزهد مخطئون. فليس هو زاهداً ولكنه رجل عاجز عن تحقيق آماله قد راضى الآمال فامتنت عليه ولم تدعن له، وأدركه اليأس من انقيادها فحلى بينها وبين الشمس، وأعرض عن لذاته لا رغبة عنها بل قصوراً وعجزاً (. . .) فهو، إذن، ساخط على الدنيا لأنها أعجزته لا لأنه زهد فيها، وفلسفته إذن كما قلت في أول هذا الحديث فلسفة المحقق المغيظ لا فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها - أو قل إنها فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها. لا لأنه أراد أن يرتفع، بل لأنه أكره نفسه على هذا الارتفاع. طمعه أكثر من طاقته، فهو يؤثر أن يفقد كل شيء على أن يقنع ببعض الشيء (. . .) أما أنا فأختصه بالرحمة والعطف، لأنه أحب الدنيا وأعرض عنها، ورغب في اللذات ثم صدف عنها، ولأنه حين أعرض عن الدنيا وصدف عن اللذات لم يضمّر لأحد شراً، ولم يحسد الناس على ما أصابوا منها، وإنما رضى عن الحرمان واطمأنت نفسه إليه، وعاش وادعاً هادئاً لا يؤذى أحدًا ولا يكاد أحد يؤذيه»<sup>(١)</sup>.

هكذا عكف أبو العلاء على التأمل والإملاء، في صبر مناضل، صبر نبيل مصدوم لا يرضى الهزيمة أمام أهوال الحياة. ولكي يحافظ على كرامته، برغم الشعور بالحرمان، انصرف برغباته المكبوتة إلى التأمل الذي يتقبل الواقع الحزين،

(١) مع أبي العلاء في سجنه ص ١٩٠، القاهرة، ١٩٦٣.

ويرفض العبث، ويزهد في الدنيا لأنها زهدت فيه، ولكن ما تحت الشعور يطفو بمكنوناته، فتظهر للعيان في رحاب العالم الآخر. هناك، لا يجروء أبو العلاء على أن يتمثل جنة بها عمى، بل نراه يتسلى عن لوعة حرمانه، ويعلل نفسه بهذه الرحلة حيث يطوف في الجنة بعينين مبصرتين أقوى ما يكون الإبصار.

بالجنة، تختفى كل العاهات<sup>(١)</sup>، فكل من أصيب في الدنيا بشيء من ذلك رفع عنه في الآخرة، بل لا يكفي أن يصبح الأعمى بصيراً والأعشى أحور، والهرم شاباً<sup>(٢)</sup> والسوداء بيضاء، وإنما يعوض الممتحن عن محنته تعويضاً لا يتمناه إلا من عانى الحرمان وامتنحن بعاهة، أو كما تقول بنت الشاطي: «لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم»<sup>(٣)</sup>. فأحد أهل الجنة بصراً هم الذين حرّموا نعمة الإبصار في الدنيا، وأجلهم عيوناً، هم عوران قيس، وأطيب نسائها نشرًا امرأة طلقت لرائحة كرهها زوجها من فيها<sup>(٤)</sup>، وأنصعن بياضاً جارية سوداء كانت تخدم في دار العلم ببغداد<sup>(٥)</sup>، وهناك بالجنة في الجموع الغفيرة من الشعراء والكتاب، تكثر النساء والحواري<sup>(٦)</sup>، رغم ما نعرف عن أبي العلاء من زهد وانصراف عنهن.

كما نجد محاورى ابن القارح، في العالم الآخر، يتساقون كثوساً عسجدية من الخمر<sup>(٧)</sup>، ويتناولون ما لذ وطاب من الأطعمة<sup>(٨)</sup>.

(١) يقول أبو العلاء على لسان عدى:

«وَمَعَكِ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يُرْهَبُ لَدَيْهَا السَّقْمُ وَلَا تَنْزَلُ بِسَكْنِهَا النَّقْمُ؟» (ص ١٩٧).

(٢) انظر حوار ابن القارح مع الأعشى حيث يقول أبو العلاء:

«فَلَيْتَيْتُ إِلَيْهِ الشَّيْخَ هَشًا بَشًا مُرْتَاخًا، فَإِذَا هُوَ بِشَابٍ غُرَاتِقٍ، غَبَّرَ فِي النِّعَمِ الْمَفَاتِقَ، وَقَدْ صَارَ عَشَاءَ حَوْرًا مَعْرُوفًا،

وانحناء ظهره قواماً موصوفاً» (ص ١٧٧-١٧٨).

انظر كذلك: حوار ابن القارح مع «حميد بن ثور» (ص ٢٦٣).

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٤) انظر رسالة الغفران، ص ٢٨٦، و٢٨٧.

(٥) يقول أبو العلاء على لسان توفيق السوداء:

«أَتَذَرِي مَنْ أَنَا يَاغُلُّ بْنُ مَنصُورٍ؟ أَنَا تَوْفِيقُ السُّودَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُ فِي (دار العلم ببغداد) (...). فيقول

(ابن القارح): لا إله إلا الله، لقد كنت سوداء فصيرت أنصع من الكافور» (ص ٢٨٧).

(٦) انظر مثلاً: مادة في الجنان، من ص ٢٦٨ إلى ٢٨٤.

(٧) انظر الحديث عن الحور العين مثلاً في ص ٢١٢-٢٨٤ و٢٨٧.

(٨) مشاهد للمنادمة، ص ٢٠٣ و٢٣٣.

هكذا شفى أبو العلاء؛ عن طريق الإعلاء غليله، وفجر بالتصور والتمثيل ما حُرِّم منه في الدنيا.

أصالة رسالة الغفران :

للمضمون حظ وافر في ما بالغفران من أصالة. فلا نعث في الآداب العربية، قبل أبي العلاء، على تصور عالم ما بعد الموت وجعله موضوع بناء أدبي. حقاً، إن القرآن الكريم يتحدث عن الجنة والنار، والصراط والحشر والنشر، ولكن في نظرة وعد ووعيد، وفي معرض الدعوة إلى الإيمان بالله، خالق الدنيا والآخرة. أما المعري، فيسبك رواية بأبطال وديكور وإخراج وحوار.

قد يقال بأن أبا حامد الغزالي، مثلاً قد دعا إلى عالم ما فوق المحسوس، عالم ليس هو عالم اليقظة ولا عالم الحلم، يتصعد إليه المرء بالحدس والذوق<sup>(١)</sup>.

على هذا، نجيب بأن الرجلين لا يرميان إلى القصد نفسه. فعالم الصوفي خاص، بالأقلية من المحظوظين، ويتنافى مع عالمنا العادي اليومي، ولا يرمى إلى انتقاد مجتمعي<sup>(٢)</sup>. أما «عالم الغفران» فيعتمد على نفس قوى من التخيل والمعرفة بالواقع المعيش، مع اطلاع على اللغة العربية ودقائقها وعلى تاريخ الأدب، والمذاهب والأديان.

وحجبتنا على ذلك واضحة تشهد بها مشاهد الغفران جنة وناراً.

فما هو التصور الديني للآخرة عند أبي العلاء؟

الغفران رحلة «روائية» طويلة المدى، بعيدة المغزى، تتجه إلى كل الناس، على اختلاف الأجيال، إلى الصوفي وإلى الشيعي، إلى المتدين وإلى الزنديق، إنها وصف ونقد، لا تبشير ووعظ.

(١) يقول أبو حامد الغزالي: «فمن لم يبلغ الطور الذي وراء العقل، لا تنفتح له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص» انظر المنقذ من الضلال ص ١٩٥، ط ٣ القاهرة، مكتبة الأنجلو، (قام بنشر هذه الطبعة عبد الحلیم عمود).

(٢) انظر: هنري برجسون منبعها الأخلاق والدين.

«آخرة» أبي العلاء عالم مثير، عالم يخضع لتطورات تأبى إلا أن تخلق عالماً آخرولاً من نوع خاص. يشبع فيه المحرومون حاجتهم الملحة إلى ألوان من النعيم افتقدوها في هذه الدنيا، ويروى ظمأ فضوله الفكرى كل المولعين بالغريب في اللغة والدخيل والمهجور، ويشفى غليله جميع المغرمين بالصناعة الفنية الأدبية، ويفجر كفته كل من صدمت رغبة من رغباته في عالمنا، عالم الصراع والأنعاب! فعالم الخيال يحمر، ولومؤقتاً، من الأنظمة التعسفية التى تفرضها العقلانية المجمدة ويصعد الشهوات المغمورة، المباح منها وغير المباح<sup>(١)</sup>.

جُلُّ أقوام عالم الغفران من الأدباء والشعراء، وأغلبيتهم من الطبقة التى عرفت الحرمان واستكانت إليه على مضض، فامرؤ القيس عرف الخمر ولم يعرف الأمر... وكم بكت الخنساء، لقد تجرعت المأساة، وزرعت الكآبة حولها<sup>(٢)</sup>... فمن أولى من هؤلاء بالتمتع بالنعيم فى الدار الأخرى؟

فى جنة عالم الغفران (جنة المحرومين فى هذه الدنيا، ومنهم أبو العلاء نفسه)، نجد كل الطيبات من الرزق، أطعمة شهية وخرماً ونساءً... إنه عالم الخيرات والتسلية المتنوعة والتزهة والصيد والرقص<sup>(٣)</sup>.

هذا ما خص به المعرى المحرومين، أما القادة السياسيون، وأصحاب العروش وأبناء الأكاسرة ونساؤهم، فيظهرهم أبو العلاء يعانون أهوال يوم الحساب والعقاب:

«تَجذِبُهُمُ الرِّبَانِيَّةُ إِلَى الجَحِيمِ، والنِّسْوَةُ ذوات التيجان يُصَرْنَ بِالسِّنَةِ من الوُقُودِ، فتأخذُ فى قُرُوعِهِنَّ وأجسادهنَّ، فيصحنَّ: هل من فِدَاءٍ؟ هل من عُدْرٍ يُقام؟ والشبابُ من أولادِ الأكاسرة يتضاغونُ فى سلاسلِ النارِ...»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر مثلاً، حوار إبليس مع ابن القارح، حول «الولدان المخلدون» ص ٣٠٩.

(٢) انظر، الرسالة، ص ٣٠٨.

(٣) انظر بعض مشاهد الجنة من ص ٢٦٧ إلى ٢٨٤.

(٤) ص ٢٤٧ - يصرن: من صار الشيء وأصاره: أماله.

يتضاغون: يتصايجون.

## تأثير عصر المعري على الرسالة :

كان العالم الإسلامي، في القرن الخامس الهجري، إمبراطورية متشعبة الكلمة منهاراً سياسياً<sup>(١)</sup> : لم يعد الحكم المركزي يوجه السياسة العامة من العاصمة بغداد، بعد أن تمرت الأقاليم (حلب والقاهرة وقرطبة . . .)، فكان رد الفعل ظاهراً في ميدان الاقتصاد، وفي التناحر الطائفي .

نشأ أبو العلاء في هذا الجو المملوء بالفوضى، فشهد تصدعاً شاملاً، وأخلاقاً غير سوية . لا نظام ولا استقرار، وبالتالي لا عدل ولا مساواة ولا استحقاق، شعبية وعصبية قبلية، وتدجيل ونفاق واستغلال للدين . فلم لا يتشأم ضمير واعٍ ، كضمير أبي العلاء ؟

المعري متشائم، ولكنه غير يائس كامل اليأس . لذا انعزل عن الناس، أفراداً، كما انعزل عن عاداتهم ومعاملاتهم . ولم يقاطعهم مجتمعات، فالأجيال تتصل، تاريخياً، وتخضع لتحول دائم . فلولم يكن لأبي العلاء أمل (ولو ضئيل) في قابلية الإنسانية للتغير والإصلاح لما انتقدها، ولا بتلع مرارته وسكت، دون أن يتهكم ويسخر من المتكلمين، والشيعية، والإمامية، والصوفية، والفرس، والهنود، لذا التزم بالقيام بواجبه، ولم يكتف بإصدار الحكم اعتباراً، بل يوضح الأخطاء بأمثلة يحللها ثم يبنى عليها أحكامه . فلتنم عن حديثه عن الحلولية ورأيه فيها، يقول :

«والحلولية قربة من مذهب التناسخ، وحُدثت عن رجلٍ من رؤساء المنجمين من أهلِ (حِران) أقامَ في بلدنا زماناً، فخرجَ مرةً مع قومٍ يتنزهون فَمَرُوا بِشورٍ يَكْرُبُ، فقال لأصحابه : لا أشكُ في أنَّ هذا الثورَ كان يُعرفُ «بِخَلْفِ» بحرَّان . وجعل يصيحُ به : يا «خَلْفُ»، فيتفقُ أن يخورَ ذلك الثورُ، فيقولُ لأصحابه : ألا ترونَ إلى صِحَّةِ ما خَبِرْتُكم به ؟»

وحكى لي عن رجلٍ آخرٍ ممن يقولُ بالتناسخ أنه قال : رأيتُ في النومِ أبي وهو يقولُ لي : «يا بُنَيَّ، إنَّ رُوحِي قد نُقِلتُ إلى جَمَلٍ أعورٍ في قِطارِ فلانٍ، وإنِّي قد

(١) الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره، ج ١، من ص ٧١ إلى ١٠٠ .

اشتهيت بطيخة، قال فأخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار فوجدت فيه جملاً  
أعور، فذنوت منه بالبطيخة، فأخذها أخذ مريد مُشتهٍ!

أفلا يرى مولاي الشيخُ إلى ما رُميَ به هذا البشرُ من سوء التمييز، وتحيزهم إلى  
ما يمتنع من التحيز؟»<sup>(١)</sup>.

كما يمكن أن نتأمل موقف أبي العلاء من الصوفية، من خلال حديثه عن  
الحلاج<sup>(٢)</sup>. إنه يعرف بحق أحوال المنافقين والمتحيزين وتصرفاتهم. فكل مذهب  
يعمل أصحابه على نشره بشتى الوسائل. فيتردد صدى ذلك كله في المجتمع الذي  
يعيش فيه :

«الإمامية تقرّبوا بالتّعفير فعده بعض المتديّنة ذنباً ليس بغير [ . . . ] و [ كم  
متظاهرٍ باعترالٍ وهو مع المخالف في نزال ]»<sup>(٣)</sup>.

حقاً، إن أبا العلاء متشائم، لكن كما أن الشك نوعان : شك لذاته (كما هو  
الحال عند الارتيايين المنكرين لكل شيء، وحال أبي حامد الغزالي الذي يرى في  
كتابه المنقذ من الضلال أن عالم اليقظة والعقل والحواس لا يمثل الحقيقة)، وشك  
منهجي (كما عند ديكارت في حديث المنهج)<sup>(٤)</sup>، نقول : إن التشاؤم كذلك،  
نوعان : تشاؤم ناشئ عن بعض الناس واليأس منهم مثل تشاؤم بطل (موليير) في  
الميزانطروب<sup>(٥)</sup>، وتشاؤم لا يصاحبه يأس كتشاؤم المعري الذي لا يقصر جهداً في  
أن يفضح ما في الكون من سواد واعوجاج، مستعملاً طريقة النقد الهاجم أحياناً  
وطريقة السخرية أحياناً أخرى، كما كان يفعل سقراط في محاوراته.

رسالة الغفران من الآثار التي تبقت حية، من القرن الخامس الهجري حتى

(١) رسالة الغفران، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) رسالة الغفران، ص ٤٥٣.

(٣) رسالة الغفران، ص ٤٦٥.

(٤) نقله إلى العربية جميل صليبا، تحت عنوان «مقالة المنهج»

René Descartes, Discours de la méthode

(٥) تمثيلية لموليير، الكاتب المسرحي الفرنسي Molière, Le misanthrope (القرن ١٧). اختلف النقاد ومؤرخو

الاداب حول نوعيتها : هل هي مأساة أم ملهاة؟

يومنا. إنها تمثل جانباً خاصاً في الآداب العربية، فلا نعرف للمتقدمين رسالة تشبهها، في أسلوبها وسعة خيالها، وما تزخر به من تحقيقات لغوية ونحوية ومناقشات فكرية. إنها صنف جديد، يمكن تسميته بـ «الأدب الفكري»، «أو الرواية - الأطروحة» (Roman-thèse)، إن جاز هذا التعبير.

مثل رسالة الغفران كمثل القصة الفلسفية حتى بن يقظان لابن طفيل، من بعض الجوانب: لكليهما أصالة تميزها عن بقية الأنواع الأدبية. طبعاً، كل موضوع جديد يأتي بمفاهيم جديدة، وهذه تقتضى، هي الأخرى أسلوباً جديداً ولغة جديدة لتساير أصالة المعاني، فالذى يبدع لغوياً وحسب، لا يعطى إرانات صوتية<sup>(١)</sup>. فاللغة إنما هي شكل تتقمصه الأفكار، فلا أصالة ولا إبداع في الأسلوب إذا كانت الأفكار فقيرة. وإن أكبر ما يميز الغفران هو أنها أتت بنوع جديد من الأدب اقتضى قوالب لغوية جديدة انصهر فيها فكان لها أثر على نمو الأسلوب الفنى وعلى تكييف الذوق لدى الخاصة من المتأدبين.

ومن أهداف هذه الدراسة أن تبرز ما تحمل رسالة الغفران، في طياتها، من تلميحات فنية وظواهر لغوية تمكن متبعي تطور اللغة العربية من إضافة عناصر جديدة إلى ملف تاريخ هذه اللغة.

في الرسالة لمحات جميلة تعين على تصور مدى نجاح أبي العلاء في استحداث لغة ذات قدرة فنية لا تتخرج من استعمال المعروف «المدرسى» إلى جانب المستحدث الطريف. فلأبي العلاء تعابير «علائية»، لا تتخرج عن نطاق روح اللغة العربية، ولكنها لا تقف عند الحدود التقليدية. إنه مبتكر، ولا بد للمبتكر من أن تنصب جهوده أيضاً على الوسائل التعبيرية. وليس هذا تنكراً منه للغة القدامى، أو رفضاً للارتواء من ينباع الصافية للسليقة العربية، بل على العكس، كان أبو العلاء يحسن الرقص على النغمة القديمة الأصيلة، وعلى النغمة الشخصية التي هي من أصالته.

\*\*\*

(١) هذا إذا افترضنا إمكانية وجود إبداع فنى لغوى مجرد عن المضمون.

تأثر المعرى بمن سبقه، كما لا شك أنه أثر، بدوره، في أسلوب الخلف. غير أننا، من الآن، نؤكد أن المعرى كان واعياً للمهمة التي التزم بها، إنه، كما قلنا، حامل رسالة فكرية ثقافية ليست في متناول العامة، فكان طبيعياً أن يجيء أسلوبه، على مستوى المهمة، خاصاً بالنخبة. ذلك ما يفسر ما بأسلوب الغفران من قوة لا تخلو من تعقيد في بعض المواقف. لقد سعى المعرى إلى التبليغ بقدر ما سعى إلى تنميق اللفظ والتلوين الموسيقي الذي يرمى إلى الزخرفة والموسيقى في حد ذاتها.

أهي «ارستقراطية» فكرية؟

إن المعرى قادر على التعبير البسيط بقدر ما يستطيع الأسلوب الوعر الممتنع.

فلنقرأ حديثه عن اللغة التي يتكلمها آدم:

«... فيقول آدمُ صلى الله عليه:

أَبَيْتُمُ إِلَّا عُقُوقًا وَأَذِيَّةً! إِنَّمَا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَأَنَا فِي الْجَنَّةِ، فَلَمَّا هَبَطْتُ إِلَى الْأَرْضِ، نُقِلَ لِسَانِي إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ، فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ، فَلَمَّا رَدَّنِي اللَّهُ، سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى الْجَنَّةِ، عَادَتْ عَلَيَّ الْعَرَبِيَّةُ، فَأَيَّ جِنِّ نَظَّمْتُ هَذَا الشَّعْرَ: فِي الْعَاجِلَةِ أَمْ الْأَجَلَةِ؟ وَالَّذِي قَالَ ذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِي الدَّارِ الْمَاكِرَةِ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ﴾.

فكيف أقولُ هذا المقالُ ولساني سرياني؟...»<sup>(١)</sup>.

فبقدر ما تتميز به هذه السطور من سلامة ووضوح، بقدر ما توغل الفقرة التالية في الغموض والالتباس لولا مبادرة أبي العلاء بالشرح:

«ولورأى تلك الأباريقَ (أبو زييد)<sup>(٢)</sup> لَعَلِمَ أَنَّهُ كَالْعَبْدِ الْمَاهِنِ<sup>(٣)</sup> أَوْ الْعُبَيْدِ، وَأَنَّهُ مَا تَشَبَّهَ بِخَيْرٍ، وَرَضِيَ بِقَلِيلِ الْمِيرِ<sup>(٤)</sup>، وَهَزِيءُ بِقَوْلِهِ:

(٣) الماهن: الخادم. جمعه، مَهَانٌ وَمَهْنَةٌ.

(٤) المير: الطعام الذي يتنازه الإنسان.

(١) رسالة الغفران، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) أبو زييد الطائي، شاعر جاهل أدرك الإسلام.

وأباريقُ مثلُ أعناقِ طَيْرِ الِ مَاءٍ قَدْ جِيبَ فَوْقَهُنَّ خَنِيفٌ<sup>(١)</sup>  
 هيهات! هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنها في الحُسْنِ الأباريقُ، فالأولى هي  
 الأباريقُ المعروفةُ، والثانيةُ من قولهم: جاريةُ إبريقُ، إذا كانت تبرق من حسنها.  
 قال الشاعر:

وغيداءِ إبريقٍ كَأَنَّ رُضَابَهَا جَنَى النَّحْلِ مَمْرُوجاً بَصْهَبَاءَ تَاجِرِ  
 والثالثة من قولهم: سيفٌ إبريقُ، مأخوذ من البريق، قال ابنُ أحرمر:

تقلدت إبريقاً وَعَلَقْتُ جُعبَةً لَتُهْلِكَ حَيًّا ذَا زُهَاءٍ وَجَامِلٌ<sup>(٢)</sup>

تمثل شخصية أبي العلاء المتأمل جنباً إلى جنب مع شخصية المعري المعتز بمعرفته  
 الواسعة للغة العربية.. يريد أن يظهر، بتحد وكبرياء، قوته على التصرف في  
 أساليب التعبير... بقدر ما نجده يعبر بأروع تعبير وأسهله عن أدق الخلجات  
 النفسانية واللونيات الفكرية، مستعيناً بكل المعطيات البلاغية المعهودة، نجده  
 كذلك ينزلق مع الإغراب والغموض، عن عمد وسابق إصرار. وهذا، مثلاً  
 ما يبدو جلياً في نقده لرؤية بن العجاج، يقول:

«فإذا رأى (ابن القارح...) ما في «رؤية» من الانتخاء قال:

لو سُبِكَ رَجُوكَ وَرَجُوكَ أَيْبُكَ، لَمْ تُخْرُجْ مِنْهُ قَصِيدَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ (...). فيقول  
 رؤية:

أليس رئيسكم، في القديم، والذي ضَهَلت<sup>(٣)</sup> إليه المقاييسُ كان يَسْتَشْهَدُ  
 بقولي ويجعلني له كالإمام؟

فيقول - وهو بالقول مُنطَقٌ:

لا فَخَرَ لَكَ أَنْ اسْتَشْهَدَ بِكَلَامِكَ، فَقَدْ وَجَدْنَا هُمْ يَسْتَشْهَدُونَ بِكَلَامِ أُمَّةٍ  
 وَكَعَاءَ تَحْمِلُ الْقُطْلَ<sup>(٤)</sup> إِلَى النَّارِ الْمُوقَدَةِ فِي السَّبْرَةِ<sup>(٥)</sup> الَّتِي نَفَضَ عَلَيْهَا الشَّبْمَ<sup>(٦)</sup>

(٤) القطل من الشجر: المقطوع.

(٥) السبرة: الغداة الباردة.

(٦) الشبم: البرد.

(١) الخنيف: جنس من الكنان.

(٢) رسالة الغفران، ص ١٤٤-١٤٥.

الزهاء: الكثرة. الجامل: القطيع من الجمال.

(٣) ضهل إلى فلان: رجع إليه.

رَيْشَهُ، وَهَدَمَ لَهَا الشَّيْخُ عَرِيشَهُ، تَأْخُذُ خَشْبَةً لِلرُّقُودِ، كَيْمَا يَصِلُ إِلَى الرُّقُودِ، وَأَجَلُ أَيَامِهَا أَنْ تَجْنِيَ عَسَاقِلَ<sup>(١)</sup>، وَمُغْرُودًا، وَتَتَلَوْنَ نَعْمًا مَطْرُودًا. وَإِنْ بَعَلَهَا فِي الْمُهْنَةِ<sup>(٢)</sup> لَسِيَّ الْعَذِيرِ، غَلُظَ عَنِ الْفِطْنِ وَالتَّحْذِيرِ. وَكَمْ رَوَى النُّحَاةَ عَنِ طِفْلِ، مَا لَهُ فِي الْأَدَبِ مِنْ كِفْلِ، وَعَنْ امْرَأَةٍ لَمْ تُعَدَّ يَوْمًا فِي الدَّرَاةِ<sup>(٣)</sup>.

## تقسيم رسالة الغفران

تنقسم الرسالة إلى قسمين رئيسيين :

### القسم الأول :

قصة خيالية تمر في السموات العلاء، أبطالها عدة، تختلف أصنافهم، منهم من يقيم بالجنة، ومنهم من يقيم بالسعير. كبير الأبطال ورئيسهم هو ابن القارح نفسه. اختاره المعري، لهذا الدور الرئيسي، ليقف هو ذاته على بطلان ما روجه عن بعض الشعراء والأدباء من زندقة وإلحاد، وليشعره بخطل آرائه عن الدنيا وأهلها.

يجتمع ابن القارح في الجنة بالكثير من كان يتهمهم. وبالحوار المباشر سيفهمهم ويتفاهم معهم، وهكذا سيجهم ويصبح من المدافعين عنهم ضد المتعنتين. وكأنه ترجمان لأراء المعري حول قضايا شتى تتعلق باللغة والشعر، والأدب والعقائد...

الملاحظ أنه لا يوجد بين قسمي الرسالة ارتباط وظيفي، بل إن ما يجمعهما هو مجرد ملامسة اقتضاها شعور أبي العلاء بالإطالة في الرحلة الأخروية وتنبهه إلى لزوم الإجابة عن رسالة ابن القارح، يقول :

(١) جمع عسقل وعسقول : ضرب من الكمأة. - المغرود، بالضم : ضرب من الكمأة، جمعه مفاريد - النعم المطرود، من : طرد الإبل ضمها من نواحيها، وساقها.  
(٢) المهنة والمهنة والمهنة : الحلق بالخدمة والعمل.  
(٣) رسالة الغفران، ص ٣٧٥-٣٧٦.

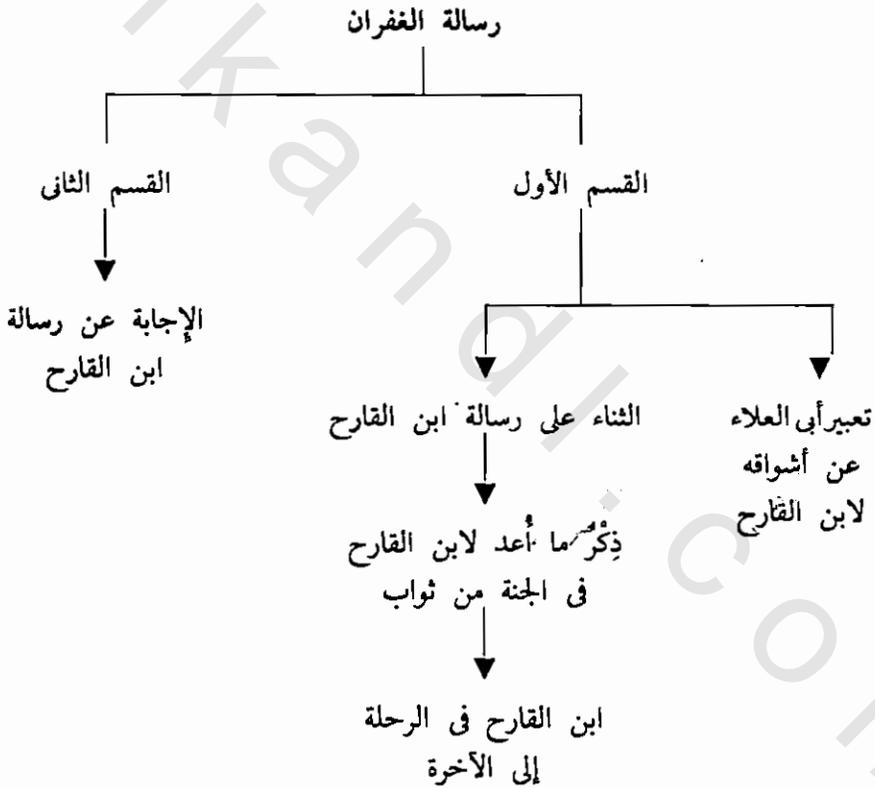
«وقد أُطلتُ في هذا الفصل، ونَعوْدُ الآنَ إلى الإجابة عن الرسالة»<sup>(١)</sup>.

إن القسم الأول كتاب قائم بذاته، وهو «رواية» الغفران، أى عالم خيالى ليس فيه سوى تلميحات بالإجابة عن بعض أسئلة ابن القارح.

أما القسم الثانى :

فقد خصصه للرد على أسئلة مراسله نقطة بعد أخرى.

يعطى الشكل التالى صورة مجملّة عن القسمين معًا.



لنتبع، الآن، مراحل كل قسم على حدة.

## القسم الأول

مهما تكن الأسباب التي دعت أبا العلاء إلى تأليف رسالة الغفران، فإن الإجابة عن رسالة ابن القارح تظل المنطلق الأول، وتمثل الهدف الأساسي بين الأهداف الرئيسية التي رُمى إليها، لذا كان طبعياً أن يستهل أبو العلاء الجواب بالتعبير عن أشواقه وإبداء شعوره نحو مراسله قبل أن يخلص إلى التعليق على الرسالة التي وصلته. وقد حرر لذلك صفحات قبل الشروع في الرحلة إلى الجنة. يقول بعد البسملة:

«قد عَلِمَ الجَبْرُ الذِي نُسِبَ إِلَيْهِ جَبْرَيْلُ، وَهُوَ فِي كُلِّ الْخَيْرَاتِ سَبِيلٌ، أَنْ فِي مَسْكَنِي حِمَاطَةَ (...)»<sup>(١)</sup> تُثْمِرُ مِنْ مَوْدَةِ مَوْلَايَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ - كَبَّتَ اللَّهُ عُدُوَّهُ، وَأَدَامَ رَوْاحَهُ إِلَى الْفَضْلِ وَغُدُوَّهُ مَا لَوْحَلْتُهُ [العالية] مِنَ الشَّجَرِ، لَدَنْتَ إِلَى الْأَرْضِ غَصُونَهَا، وَأَذِيلَ مِنْ تَلِكِ الثَّمَرَةِ مَصُونَهَا...»<sup>(٢)</sup>.

ثم يبدأ وصف رسالة ابن القارح قائلاً:

«وقد وصلت الرسالة التي بحرُّها بالحِجَمِ مسجورٌ، ومَنْ قرأها مأجورٌ، إذ كانت تأمرُ بتقبُّلِ الشَّرْعِ، وَتَعْيِيبِ مَنْ تَرَكَ أَصْلًا إِلَى فِرْعَ. وَغَرِقَتْ فِي أَمْوَاجِ بَدْعِهَا الزَّاحِرَةِ، وَعَجِبَتْ مِنْ اتِّسَاقِ عَقُودِهَا الْفَاخِرَةِ؛ وَمِثْلَهَا شَفَعَ وَنَفَعَ، وَقَرَّبَ عِنْدَ اللَّهِ وَرَفَعَ، وَالْفَيْتَهَا مُفْتَتِحَةً بِتَمَجِيدٍ، صَدَرَ عَنْ بَلِيغٍ مُجِيدٍ، وَفِي قُدْرَةِ رَبِّنَا - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا شَيْخَ نُورٍ، لَا يَمْتَرِجُ بِمَقَالِ الزُّورِ، يَسْتَغْفِرُ لِمَنْ أَنْشَأَهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَيَذَكِّرُهُ ذِكْرَ مُجِبِّ خَلْدَيْنِ»<sup>(٣)</sup>. وَلَعَلَّهُ سَبْحَانَهُ، قَدْ نَصَبَ لِسَطُورِهَا الْمُنْجِيَةَ مِنَ اللَّهَبِ، مَعَارِيَجَ مِنَ الْفِضَّةِ أَوْ الذَّهَبِ تَعْرُجُ بِهَا

(١) الحماطة: سواد القلب وجبته. وهي أيضاً واحدة «الحماط»: شجر كالتين ثمره أحمر وحلو، منابته أجواف الجبال.

(٢) الرسالة، ص ١٢٩.

(٣) الخلدَيْن: الصديق.

الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشِفُ سُجُوفَ<sup>(١)</sup> الظلماءِ، بدليلِ الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنيَّة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ، بِأُذُنٍ رَبَّهَا﴾<sup>(٣)</sup>.

وفي تلك السطور كَلِمٌ كثيرٌ، كلُّه عند الباري، تقدس، أثير<sup>(٤)</sup>.

إن كانت الصفحات السابقة أتت كديباجة امتازت بشيء غير قليل من الجمالة، كما تقتضيه الحال، في رسالة إخوانية، فإنها تحمل في طياتها تقديراً كبيراً من المعري لمراسله، فابن القارح، كما يبدو في نظر أبي العلاء، صادقاً كان أم مستهزئاً، رجل علم وحكمة وورع. وبما أنه افتتح رسالته بالثناء على الخالق تعالى، استحق نعيم الخلد في الجنة:

«فقد عُرسَ لمولاي الشيخِ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجرٌ في الجنةٍ لذيذٌ اجتناء، كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلِّ غَاطِ.<sup>(٥)</sup> (...) والولدانُ المخلدون في ظلال تلك الشجرِ قيامٌ وقعود، وبالمغفرة نيلت السُّعود، يقولون، واللهُ القادرُ على كلِّ عزيز، نحنُ وهذا الشجرُ صِلَةٌ من الله «لعلِّي بن منصور»<sup>(٦)</sup> نُخباً له إلى نفخ الصور»<sup>(٧)</sup>.

\*\*\*

لم يكتف أبو العلاء بأن يتمنى لصاحبه نعيم الجنة، بل يسعى إلى تحقيق ذلك التمني ولو خيالاً، وبأبي إلا أن يجعل ابن القارح يتمتع، فعلاً، بهذا الذي صوره من نعيم الجنان، فرأيناه يبوئه أعلى درجات الفردوس ويفسح له المجال للتجول هناك. لقد خطر لابن القارح أن يقوم بنزهة في الآخرة،

(١) سجوف: الواحد سجف = الستر.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٤) رسالة الغفران، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٥) غاط: واسع مبسوط ومظل.

(٦) هو ابن القارح مراسل أبي العلاء.

(٧) رسالة الغفران، ص ١٤١.

فصوره لنا أبو العلاء، وقد امتطى جملاً قوياً سريعاً من جمال الجنة، ودونما تصميم محدد، ينطلق قاطعاً أشواط هذه الجولة العجيبة، ثم انتزع القارئ من كيانه الدُّنيوي ليساير، عن كئيب، خطوات الرحلة ويشارك ابن القارح بشوق وشغف في مختلف نشاطاته التي ابتدعها المؤلف ابتداءً، هكذا يجعلنا نعيش ساعات طويلاً في جو الرحلة القارحية الشيقة إلى الآخرة، كما نتمتع، في آن واحد، بمحاوراته المتنوعة المشارب مع ما يربى على خمسين محاوراً، ما بين شاعر ولغوى ونحوى وأديب...، بل حتى مع آدم وإبليس، والجن، وبعض الحيوانات، وغير هؤلاء ممن يقيم في الجنة أو جهنم، فيندعش ابن القارح، وندعش بدورنا معه أمام خيرات الجنة، وترتعش فرائصنا جميعاً أمام مشاهد هول يوم الحشر، وكوارث أهل النار.

لقد نجحت عبقرية أبي العلاء في تصوير مبدع للعالم الأخرى، وبالرغم من أن أسباب الرحلة القارحية واهية، من الجانب العقلائي. فإنها تسجل نجاحاً فائقاً في الفن الروائي.

إذا نحن رافقنا ابن القارح وجدنا أن الرحلة طويلة ومغرية تمر بمراحل تتوالى كما يأتي:

### المرحلة الأولى:

في الجنة: يفاجئنا أبو العلاء بتربع ابن القارح إحدى عرصات الجنان وقد اصطفى له جماعة من أدباء وأئمة اللغة المقيمين بالجنة، وهم يتبادلون أطراف الحديث حول وقائع العرب، يقول:

«وكانني به (ابن القارح) - أدام الله الجمالَ ببقائه - إذا استحقَّ تلك الرتبة،  
يقيم التوبة، وقد اصطفى له ندامي من أدباء الفردوس (...). «وأبو عبيدة»  
يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان «والأصمعي» يُشدهم من الشعر  
ما أحسن قائله كل الإحسان.

وتهش نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق»<sup>(١)</sup>.

(١) رسالة الغفران، ص ١٦٨-١٧٢.

### المرحلة الثانية :

بَدءُ الرحلة : خلال تلك الجلسة الأدبية يخاطر لابن القارح أن يقوم بنزهة في الجنة، فنشاهده على جمل غريب الصفة يسير من غير تصميم مسبق :

« ثم إنه - أدامَ اللهُ تَمَكِّينَه - يَخْطِرُ له حديثُ شيءٍ كان يُسَمَّى النزهةَ في الدارِ الفانية، فَيَرَكِبُ نَجِيًّا من نُجَبِ الجنةِ خُلِقَ من يَأْقُوتِ ودُرٍّ (...). فَيَسِيرُ في الجنةِ على غيرِ مَنَهَجٍ، ومعه شيءٌ من طعامِ الخُلودِ»<sup>(١)</sup>.

ها هو ذا يطوف بين الأشجار والأنهار، محفوفًا بما لذ من الطعام والشراب، ممتعًا بجمال الحور العين ومجالس اللهو والغناء.

هناك، في الجنة، يصادف بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين ممن حظوا بلطف الله ونجوا من جهنم، فيقيمون ندوات أدبية ولغوية فيها من المتع الفكرية بقدر ما توفر من الملذات الحسية التي تشبع بمتعة فائقة، كل الرغبات البشرية.

### المرحلة الثالثة :

القيامة : لم يفت أبا العلاء أن يقف بنا وقفة يصف خلالها أهوال القيامة، هكذا أخذ ابن القارح يحكى لتميم بن أبي عمَّا لقيه من مشاق يوم القيامة، وعن انتظار في قلق، دام ستة أشهر، بين هول الحشر وأمل الشفاعة<sup>(٢)</sup> يقول :

« أَنَا أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّتِي : لَمَّا نَهَضْتُ أَنْتَفَضُ من الرِّيمِ، وَحَضَرْتُ حَرَصَاتِ القِيَامَةِ (...). فافتكرتُ، فرأيتُ أمرًا لا قِيَامَ لثَلِي به، ولقيتُ المَلَكُ الحَفِيظُ بما زُبِرَ لي من فِعْلِ الخَيْرِ، فَوَجَدْتُ حَسَنَاتِي قَلِيلَةً كَالنَّفَا فِي العَامِ الأَرْمَلِ (...). فَلَمَّا أَقَمْتُ فِي المَوْقِفِ زُهَاءَ شَهْرٍ أو شَهْرَيْنِ، وَخِفتُ في العَرَقِ من العَرَقِ، زَيَّنْتُ لي النَفْسُ الكاذِبَةُ أَنْ أنْظِمَ أبياتًا في «رضوان، خازن الجنان» عَمَلْتُها في وَزَنِ :

(١) رسالة الغفران، ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) إنها في الواقع، مرحلة سابقة : فابن القارح لم يدخل الجنة إلا بعد أن مرَّ بالحشر، غير أن المعرى بدأ بفصل أول عن الجنة، ثم جعل بطل روايته يتحدث عمَّا عانى قبل أن يغفر له ويصبح من أهل الجنة، وهذه طريقة رائعة لم يعرفها الفن السينمائي، ولا بعض أصناف القصة إلا حديثًا.

قفا نَبِّك من ذَكَرَى حبيب وعِرفان  
ووسمتها «برضوان» (.. .)<sup>(١)</sup>.

وقد استغرقت قصة الحشر هذه أربع عشرة صفحة حكى لنا فيها ابن القارح عن وقفة الحساب، ويوم الحشر وما عاناه من ظمأ وتعب وحرارة. إثر ذلك، استأنف طوافه بمرافق الجنة، وعاد من جديد إلى حوار الشعراء والقيان، في مجالس شراب وغناء ورقص، وفي ندوات شعرية ولغوية حول مآدب بالجنان.

#### المرحلة الرابعة:-

جنة العفاريت: حرض الفضول رغبة ابن القارح في أن يطلع على أحوال أهل الجحيم. وفي طريقه إلى جهنم عرج على رواق العفاريت (وهم من الجن الذين آمنوا برسالة نبي الإسلام).

جناح العفاريت أقل بهجة وبهاء ونوراً ومتمعة من جنة البشر، ولم يفث ابن القارح أن يكلم سكانه، ويستمع إلى أشعارهم وأخبارهم:

«وَيَبْدُو لَهُ أَنْ يَطَّلِعَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ فَيَنْظُرَ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ لِيَعْظُمَ شُكْرُهُ عَلَى النِّعَمِ (.. .) فَيَرَكَّبُ بَعْضُ دَوَابِّ الْجَنَّةِ وَيَسِيرُ، فَإِذَا هُوَ بِمَدَائِنَ لَيْسَتْ كَمَدَائِنِ الْجَنَّةِ، وَلَا عَلَيْهَا النُّورُ الشَّعْشَعَانِي، وَهِيَ ذَاتُ أَدْحَالٍ وَغَمَائِلٍ، فَيَقُولُ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ:

ما هذه يا عبد الله؟

فيقول: هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (.. .) فيقول:

لأعدلنَّ إلى هؤلاءِ فلنَّ أخلو لَدَيْهِمْ من أعجوبةٍ، فيعوجُّ عليهم (.. .)<sup>(٢)</sup>.

(١) رسالة الغفران، ص ٢٤٨. تستمر حكاية الحشر حتى صفحة ٢٦٢.

(٢) رسالة الغفران، ص ٢٨٩-٢٩٠.

### المرحلة الخامسة :

الجحيم : يودع ابن القارح ماوى العفاريت ليتابع سيره نحو جهنم، فيقف قريباً من المطلع إلى النار، ليتحدث إلى الخنساء :

«فیری إبلیس - لَعَنَهُ اللهُ - وَهُوَ يَضْطَرُّ فِي الْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ»<sup>(١)</sup>  
فيحادثه، ثم يطرح أسئلة على بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين الذين يقيمون بالنار.

فلما رأى «قِلَّةَ الفوائدِ لديهم، تَرَكَهم في الشقاءِ السَّرمَدِ، وَعَمَدَ لمحلهِ في الجنانِ»<sup>(٢)</sup>.

### المرحلة السادسة :

رجوع ابن القارح إلى الجنة : بعد الجولة الاستطلاعية في الجحيم، يعود إلى مقره بالجنة، فيصادف آدم فيتحدث معه، ثم يلتقى بـ«ذات الصفا»<sup>(٣)</sup>، وأخيراً «يَمُرُّ بأبياتٍ ليس لها سموقُ أبياتِ الجنةِ، فيسألُ عنها فيقالُ : هذه جنةُ الرُّجْزِ»<sup>(٤)</sup> فيحاورهم. وبعد هذا الطواف تنتهي الرحلة حيث :

«يَتَكَيُّ (ابن القارح) على مَفْرَشٍ من السُّنْدُسِ . ويأمرُ الحورَ العِينَ أن يَحْمِلْنَ ذلكَ المَفْرَشَ فيضَعْنَهُ على سَرِيرٍ من سُرُرِ أهلِ الجنةِ، وإِنَّمَا هُوَ زَبْرَجْدٌ أو عَسْجَدٌ، ويكوُنُ البارئُ فيه حَلَقًا من الذَّهَبِ تُطِيفُ به من كُلِّ الأَشْرَاءِ حتَّى يأخُذَ كُلُّ واحدٍ من الغلمانِ، وكلُّ واحدةٍ مِنَ الجَوَارِي المُشَبَّهَةِ بالجُمانِ واحدةً من تلكَ الحَلَقِ؛ فيَحْمِلُ على تلكَ الحالِ إلى مَحَلِّهِ المُشَيَّدِ بدارِ الخُلُودِ (. . .) وتُنَادِيهِ الثَّمَرَاتُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ :

(١) رسالة الغفران، ص ٣٠٩.

(٢) رسالة الغفران، ص ٣٦٠.

(٣) اسم حية اشتهرت بالوفاء بالعهد، استحقت نعيم الجنة كما تروى أسطورة «الحية والأخوين»، وقد نظم النابغة

قصيدة عن هذه الأسطورة.

(٤) رسالة الغفران، ص ٣٧٣-٣٧٤.

هل لك يا أبا الحسن؟<sup>(١)</sup> هل لك؟ فإذا أراد عُثْقُودًا من العنبٍ أو غيره، انْقَضَبَ مِنَ الشُّجْرَةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَحَمَلَتْهُ الْقِدْرَةُ إِلَى فِيهِ..»<sup>(٢)</sup>.

يشعر أبو العلاء بأنه أطال في وصف الرحلة القارحية، فيختتمها قائلاً: «وقد أطلت في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة»<sup>(٣)</sup>.  
ذاك ملخص مراحل الرحلة القارحية التي استغرقت القسم الأول من الغفران.

## القسم الثاني

ينقلنا أبو العلاء من الجو القصصى الممزوج بالأسطورة والمعرفة اللغوية والأدبية إلى جو المراسلات المعهودة لدى معاصريه من أدباء ولغويين.

فيتصدى في القسم الثاني إلى الجواب عما ورد في رسالة ابن القارح من أسئلة، يجيب عنها، واحدًا واحدًا. ويبدأ بالتعليق على تقدير ابن القارح له وعلى ما نقله من الآراء حول خلقه وعلمه، متواضعًا تواضع النزهاء.

«وأما ما ذكره من حالي (...). فطلما أُعْطِيَ الوثنُ سعودًا، فصَارَ حُضُورُهُ لِلجَهْلَةِ موعودًا! فَإِنْ سُرِرْتُ بالباطل، فَشَهْرَتُ بِاتِّخَاذِ النِّياطِلِ. وَإِنَّ الصَّابِرَ مَا جُورَ محمود، ولأريب أن سيقدر لمن ظعن شرب مُمُود.

وأحلف كيمين امرئ القيس (...). والأخرى التي أقسم بها زهير (...). إني لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول (...). ويقال إني من أهل الدين، ولو ظهر ما وراء السدين، ما اقتنع لي الواصف بسب، وود أن يسقيني جوزلاً بسب»<sup>(٤)</sup>.

(١) أبو الحسن: كنية ابن القارح.

(٢) رسالة الغفران، ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) رسالة الغفران، ص ٣٧٩.

(٤) رسالة الغفران، ص ٣٨٧-٣٩٠. الجوزل هنا: الشب. ملح معدن قابض.

بعد هذا، يبدي تأسفه على ضياع رسالة أبي الفرج الزهرجى إليه: <sup>(١)</sup> «ووددتُ أنَّ (الرسالة) وصلتْ إليَّ، ولكنَّ ما عدلَ ذلك العديليُّ، فبعِدَ ما تغنىَّ هديليُّ، هلَّا اقتنعتُ بنفقتي أو توبتُ، وتركتُ الصُّحفَ عن توبتِ؟ فأرب من يديهِ، ولا اهتدي في الليلة بفرقتيهِ» <sup>(٢)</sup>.

ثم يتحدث عن الأشخاص الذين جاء ذكرهم في الرسالة القارحية، فيدافع عن بعض المتهمين منهم، مثل دفاعه عن «بشار» ضد تهمة الزندقة، إذ يرى أبو العلاء أن بشاراً:

«إنَّما أخذ ذلك عن غيره، وقد روى أنَّه وجدَ في كتبه رُقعةً مكتوب فيها: إني أردتُ أن أهجو فلانَ بنَ فلانِ الهاشمي، فصفحتُ عنه، لقرابته من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم» <sup>(٣)</sup>.

ويؤكد التهمة بالنسبة لآخرين، كقوله في المصحفين: «فغيرُ البررة ولا المنصفين» <sup>(٤)</sup>.

إلى جانب ذلك، يتطرق أبو العلاء للحديث عن بعض المذاهب والعقائد، فيتعرض إلى مشكل الزمان والمكان، ومشكل التناسخ، كما يتعرض إلى مذاهب القرامطة <sup>(٥)</sup> والمعزلة وأهل الحلول <sup>(٦)</sup>، فيناقش أصحابها ويتقد بحدثة أفكارهم ويظهر زيفها.

(١) انظر الإشارة إلى هذه الرسالة في ص ١٣ من هذه الدراسة.

(٢) رسالة الغفران، ص ٤٠٤.

(٣) رسالة الغفران، ص ٤٢٩.

(٤) رسالة الغفران، ص ٤١٢.

(٥) القرامطة: طائفة باطنية يؤولون الأحكام الشرعية والآيات القرآنية تأويلات ظاهرية وتأويلات باطنية. كانوا يقولون بالحلول استغلوا الدين في القيام بدور سياسى هام.

ظهرت هذه الحركة في ٢٧٨ هـ - ٨٩١ م وانتشرت دعوتها بالشام، وانتصرت على جيوش الخليفة العباسى المعتذر. حلَّ دعائهم بأفريقيا (تونس حالياً) ليمهدوا السبل لقيام الدولة الفاطمية.

(٦) قام، مثلاً، في بغداد أبو جعفر السلمغانى يذعى التناسخ وحلول الألوهية فيه، فقتل سنة ٩٣٤ م. انظر حديث أبي العلاء عن الحلوية، وقد نقلناه في مناسبة سابقة من هذه الرسالة.

لم يثر أبو العلاء هاته القضايا لمجرد ذكرها، وبدون هدف معين، وإنما طرقها ليشرحها ويبين موقفه منها. مثلاً، يتعرض لذكر المعتزلة ليؤكد أن بعضهم يتسغلون الناس باسم الدين، وأن من أئمتهم من يشرب الخمر ولا يتورع عن ارتكاب الفحش:

«كم متظاهرٍ باعتزال، وهو مع المخالفِ في نزال، يزعم أن ربّه على الذرّة يُخلدُ في النار، بلّه الدرهم وبلّه الدينار، وما ينفك يَحْتَقِبُ من المائِمِ عِظائِم، ويقعُ بها في أطائِم<sup>(١)</sup>. وَيَنهَمُكُ على العَهَارِ والفِسقِ، ويظعنُ من الأوزارِ الموبِقَةِ بأوفى وسق<sup>(٢)</sup>، يقنُتُ على رَهْطِ الإِجْبَارِ، ويسنُدُ إلى عبد الجبار<sup>(٣)</sup>، يُطيلُ الدأبَ في النهارِ والليلِ، ويُضْمِرُ أن شَيْخَ المعتزلةِ غيرُ طاهرِ الرُذْنِ ولا الذليلِ، قد صيرَ الجدَلَ مصيدَةً، ينظُمُ به من الغيِّ قصيدة<sup>(٤)</sup>».

لا يترك المعري الفرصة تفوته دون أن يبدي رأيه في مشكل كثيراً ما اختلف الناس فيه، هو مشكل الحلول وشعوذة الحسين بن منصور الحلاج:

«وأدلُّ رُتَبِ الحلاج<sup>(٥)</sup> أن يكون شعوزياً، لا ثاقبَ الفهمِ، ولا أَحوذياً، على أن الصُوفِيَّةَ تُعَظِّمُهُ مِنْهُم طائفةٌ، ما هي لأمره شائفة<sup>(٦)</sup>».

هذه أحكام لا تصدر عن متشائم يائس بل عن مفكر ملتزم، ينتقد بجرأة ليفضح الزيف.

(١) أطائم: جمع أطيمة وهي موقد النار.

(٢) الوسق: الحمل.

(٣) عبد الجبار: ابن أحمد بن عبد الجبار الهمداني، كان يذهب مذهب الشافعي في الفروع، ومذاهب المعتزلة في

الأصول. مات بالري، عام ٤١٥ هـ.

(٤) الرسالة، ص ٤٦٥.

(٥) جاء، في الفهرست لابن النديم، أن الحسين بن منصور، المشهور بالحلاج كان:

«رجلاً محتالاً مشعوذاً، يتعاطى مذاهب الصوفية، يتحلّى بالفاظهم ويدعى كل علم، وكان صفرًا من ذلك وكان (. . .)

مرتكبًا للعظائم، يروم انقلاب الدول ويدعى عند أصحابه الألوهية، ويقول بالحلول، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك،

ومذاهب الصوفية للعامة، وفي تضاعيف ذلك يدعى أن الألوهية قد حلت فيه وأنه هو. . .» (ص ٢٨٣ - ٢٨٦ -

ط القاهرة). وقد ظهر أمر الحلاج، وانتشر ذكره سنة ٢٩٩ هـ.

(٦) الرسالة، ص ٤٦٣.

لا تقف جراءة أبي العلاء عند هذا الحد من التجريح والتعديل والنقد الموضح للأوضاع، فكما تعرض إلى القرامطة، تناول بالفحص والتمحيص مواقف عبد الله ابن سبأ، أحد زعماء الإسرائيليات<sup>(١)</sup>. هذا مما يؤكد لنا أن أبا العلاء كان مجدداً لحركة التفكير والنقد المجتمعي على عهده، فهو ملتزم التزام من يؤمل مسبقاً إصلاح المجتمع العربي الإسلامي.

نشير أيضاً إلى أن آراء المعري لم تكن تعسفية رغبة في الاختلاف بل كثيراً ما كانت موضوعية ويتجلى ذلك، مثلاً في تحليله للإلحاد والزندقة اللذين كانا منتشرين جداً في الوسط الإسلامي. لقد مهد للرد على أسئلة مراسله بتحليل مفهوم الزندقة وإظهار أنها شيء أصيل في الطبيعة البشرية:

«ولم يزل الإلحاد في بني «آدم» على ممر الدهور، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم، صلى الله عليه، بعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة، وخوفهم من العذاب، فكذبوه وردوا قوله. ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم»<sup>(٢)</sup>.

وانطلاقاً من هذا الرأي أخذ يدافع عن أبي الطيب المتنبى، نافية عنه التهم التي ألصقت به:

«وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه. وإنما هي مقادير يُديرها في العلو مُدير، يظفر بها من وفق، ولا يُرَاعِ بالمجتهد أن يُخْفِقَ وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألهاً، ومثّل غيره من الناس مُتد لها، فمن ذلك قوله:

ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

وقوله:

ما أقدر الله أن يُخزِي بَرِيَّتَهُ ولا يصدِّق قَوْمًا في الذِي زَعَمُوا.

وإذا رُجِعَ إلى الحقائق، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تدبناً، وإنما يجعل

(١) الرسالة، ص ٤٩٣.

(٢) الرسالة، ص ٤٢١.

ذلك تزيّنا، يريد أن يصلّ به إلى ثناءٍ أو غرضٍ من أغراض الخالصة أمّ الفناء، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبّدون، وفيما بطن ملحدون»<sup>(١)</sup>.

كثيرة هي مواقف المعرى من القضايا الكبرى، وكلها تمتاز بميزة رئيسية: كونها قضايا الساعة، لذلك كان الاهتمام بها التزاماً. ولا يسمح المقام بتقصي تلك القضايا لذا اكتفينا بالإشارة إلى نماذج تمثل قليلاً من كثير.

### الخلاصة:

بوسع الباحث أن يسجل أن رسالة الغفران تدخل في إطار زمان معين، وتعكس وسطاً إسلامياً خاصاً هو الوسط المشرقي، فلو أن المعرى عاش، في نفس العصر، بالأندلس، لكانت اهتماماته غير تلك، ولما كان ليهتم بالقرامطة، ولا ليدخل في مجادلات حول أبي الطيب المتنبي لأن مشاكل الغرب الإسلامي في القرن الرابع والخامس غيرها في المشرق.

ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن الأمكنة المذكورة في رسالة الغفران كلها من المشرق (بالإضافة إلى المذاهب والأعلام).. هكذا تأتي (حلب) في طليعة بقية الأمكنة حيث ذُكرت ١٨ مرة، وتليها مكة (١٥ مرة) ثم بغداد (١٢ مرة) فالبصرة (٨ مرات) فالحيرة (٥ مرات) ثم دمشق (٤ مرات) والكوفة (مرتان).

فمجالس المعرى الأخروية كانت تعكس ماجريات المجتمع المعاصر، الأقرب فالأقرب. جاءت حلب في الطليعة لأن قضايا معرة النعمان كانت خاضعة لقضايا حلب. امتازت العواصم الأخرى بكونها مراكز سياسية وثقافية مشعة إذ ذاك.

نستنتج مما تقدم أن أبا العلاء كان رائداً للالتزام، من أجل الإصلاح المجتمعي.

## الفصل الثاني

### المنهج في رسالة الغفران

أبو العلاء المبدع

حاولنا فيما سبق رسم المعالم الكبرى لمضامين الغفران، وهدفنا الآن أن نستخلص هيكل المنهجية التي اعتمدها أبو العلاء في إيصال تلك المضامين، هيكلًا وأسلوبًا.

أول ما يلفت نظر الدارس هو قدرة أبي العلاء على أن يتقمص سيكولوجيًا ولغويًا في آن واحد هوية عدة شخصيات مختلفة، فهو، مرة، أبو العلاء، وأخرى، ابن القارح، وتارة «عدى بن زيد العبادي»<sup>(١)</sup> وأحيانًا إوزة من إوزة الجنة<sup>(٢)</sup>، أو حوراء من حورها<sup>(٣)</sup>، أو «رضوان خازن الجنان»<sup>(٤)</sup>، وأحيانًا يبدو في شخصية امرأة، مثل «فاطمة الزهراء»<sup>(٥)</sup>، و«توفيق السوداء»<sup>(٦)</sup>، أو «آدم»<sup>(٧)</sup>، وأحيانًا أخرى يلبس لباس شخص من الشخص غير الأدمية مثل «الجن المؤمن»<sup>(٨)</sup> وإبليس<sup>(٩)</sup>، وبعض الحيات «كذات الصفا»<sup>(١٠)</sup>، والحيوانات «كأسد القاصرة»<sup>(١١)</sup>.

وقد انتقى في كل مرة من الألفاظ ما يناسب، فكانت التراكيب تتغير حسب الأشخاص الذين يتكلمون كما تتغير الضمائر وأزمنة الأفعال.

(٧) رسالة الغفران ص ٣٦٠.

(٨) رسالة الغفران ص ٢٩٠.

(٩) رسالة الغفران ص ٣٠٩.

(١٠) رسالة الغفران ص ٣٦٤.

(١١) رسالة الغفران ص ٣٠٤.

(١) رسالة الغفران ص ١٨٦.

(٢) رسالة الغفران ص ٢١٢.

(٣) رسالة الغفران ص ٢٨٨.

(٤) رسالة الغفران ص ٢٥٠.

(٥) رسالة الغفران ص ٢٥٨.

(٦) رسالة الغفران ص ٢٨٧.

يتولى أبو العلاء نفسه التعبير عما يشعر به من شوق لابن القارح، والثناء على رسالته. وما إن تبدأ الرحلة إلى الآخرة، حتى يدع مجال الحديث للبطل، ابن القارح، ومحاوريه، ويتقمص هو شخصية «المدير» منسقاَ المشاهد الأخروية، فلا نراه يتدخل في الحديث إلا نادراً، لشرح لفظة أو لإبداء رأى. ولا يفوتنا في ملاحظة ثانية أن نشير إلى أن جميع أشخاص الرسالة الذين ذكرهم أبو العلاء مشاركة، فلا يُظهر مغريباً على خشبة المسرح الذى اختاره، لا من الأدباء أو الشعراء، ولا من اللغويين، وهذا يؤكد ما قلناه سابقاً من أن الرسالة تعكس الوسط الذى عاش فيه أبو العلاء، مكانياً وزمانياً.

وفى ما يلي، نقدم رسماً تفصيلياً لمشاهد «الغفران»، حيث يظهر فى كل مشهد أبطال وممثلون حسب الأدوار التى يقومون بها.

رسم تفصيلي لمشاهد رسالة العفزان\*  
بطل الرحلة : ابن القارح

٢٧٧ من ص	٢٧٤ من ص	٣١٠ من ص	٣٠٩ من ص	٣٠٧ من ص	٣٠٤ من ص	٢٠٩ من ص	١٧٥ من ص	١٦٨ من ص
يحمل إلى مقوه بدار الخلدو	جثة الرجز بجوار:	في الطريق لمطه بائجان بجوار:	في المطح إلى النار بجوار:	في أقصى البنية بجوار:	عندما يرحل عن جثة المقاربت بجوار:	في جثة المقاربت بجوار:	خلال النزوة في البنية بجوار:	في البنية مع:
٧٣- رزية ابن المصاح.	٧٣- رزية ابن المصاح.	٦٩- آدم ٧٠- ذات الصفا ٧١- حية قارزة. ٧٢- جارية شجر حور البنية.	٥٣- إبليس ٥٤- بشار ٥٥- صخرة ٥٦- عاقمة ٥٧- عمرو ابن كلثوم ٥٨- الحارث اليشكري ٥٩- طرفة بن العبد ٦٠- أوس بن حجر ٦١- أبو كبير اللؤلؤ ٦٢- صخر النسي ٦٣- الأحمال التتالي ٦٤- المهمل ٦٥- الرقش الأكبر ٦٦- الرقش الأصغر ٦٧- الشنري الأرضي ٦٨- تابط شرا.	٥١- الخطيبة ٥٢- الخشاء.	٤٩- أسد القاصرة ٥٠- الذئب النفي كلم السلبي.	٤٧- الجن ٤٨- الخيتور	٩- الأعمى. ١٠- زهير. ١١- عبيد. ١٢- عسلى. ١٣- السفلى. ١٤- الجمعدى. ١٥- الدنبيان. ١٦- المازن. ١٧- الششيبان ١٨- أبو عبيدة. ١٩- الأصمى. ٢٠- أوز الجنة. ٢١- لسبيد. ٢٢- حسان بن ثابت. ٢٣- العجاج بن ضرار. ٢٤- ابن امر. ٢٥- قيس بن أبي. ٢٦- رضوان (حارس الجنان). ٢٧- زفر. ٢٨- حرة بن عبد المطلب. ٢٩- علي بن أبي طالب. ٣٠- قاضي حلب. ٣١- فاطمة. ٣٢- عمدة ﷺ. ٣٣- جيل البنية. ٣٤- جارية فاطمة. ٣٥- راضي الأبل. ٣٦- حميد بن ثور. ٣٧- الجرافتان. ٣٨- جران العمود. ٣٩- أم عمرو بن عدى. ٤٠- الخليل. ٤١- ابن درستويه. ٤٢- النضر بن شميل. ٤٣- حمدونه. ٤٤- توفيق السواد. ٤٥- ملاك. ٤٦- جارية شجر حور البنية.	١- أبو بركة. ٢- أبو أوس. ٣- يونس بن حبيب. ٤- الجاشيقي. ٥- سيويه. ٦- الكسائي. ٧- أبو عبيدة. ٨- الأصمى.

● ملاحظة: أرقام الصفحات تشير إلى بدء المشهد كما ورد في رسالة العفزان.

## خطوات الحوار :

(أ) في الجنة : لا يكاد يخلو حوار أبي العلاء، (في شخص ابن القارح) مع من أسكنهم الجنة، وخصوصاً الشعراء منهم، من وقفة أو من وقفات لغوية أو نحوية أو صرفية أو نقدية أو سوسولوجية، أى من تلميحات تتعلق بتاريخ الأدب أو تاريخ الإسلام، أو إبداء رأى في علم العروض أو الموسيقى أو الدين أو السياسة. بل أحياناً تتعدد تلك الاستطرادات وتنوع، فنجد أبا العلاء ينتقل بنا في الحوار الواحد، من موضوع لآخر خاضعاً لمنهج متقارب يكاد يكون هو هو، في جل المشاهد، ويقطع نفس الخطوات :

(أ) الاتصال بالشاعر.

(ب) وصف الشاعر من حيث هيئته (ويبدو في هذا الوصف إلحاح أبي العلاء على التعويض عما حرم منه في الدنيا، كالبصر والملاذات المختلفة).

(ج) وصف منزله أو قصره في الجنة مع ما يحيط به من رياض.

(د) السؤال عما غفر به للشاعر.

(هـ) الحديث عن شعر مخاطبه، فالاستطراد إلى ذكر بعض الانتقادات التي تتعلق، أحياناً، بقضايا لغوية أو نحوية، وأحياناً أخرى بوزن القصيدة، وبحرها ومعانيها أو بتصحيح رواية أو نسبة شعر إلى صاحبه. سار على هذه الخطة بالتوالى مع كل من الأعشى<sup>(١)</sup> وزهير<sup>(٢)</sup> وعبيد<sup>(٣)</sup> وعدى<sup>(٤)</sup> والنابغة الذبياني<sup>(٥)</sup> وليد<sup>(٦)</sup>.

وها نموذج من هذا المشهد :

«وينظرُ الشيخُ (ابن القارح) في رياضِ الجنةِ فيرى قَصْرَيْنِ مُنَيَّفَيْنِ، فيقولُ في نفسه : لأبْلَغَنَّ هَذَيْنِ الْقَصْرَيْنِ، فَأَسْأَلُ لِمَنْ هُمَا. فإذا قُرْبَ إِلَيْهِمَا رَأَى عَلَى أَحَدِهِمَا

(٤) الرسالة ص ١٨٦.

(٥) الرسالة ص ٢٠٢.

(٦) الرسالة ص ٢١٥.

(١) الرسالة ص ١٧٧.

(٢) الرسالة ص ١٨٤.

(٣) الرسالة ص ١٨٥.

مكتوباً: «هذا القصرُ لِزُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَى الْمُرِّيِّ»<sup>(١)</sup> وعلى الآخر:

«هذا القصرُ لِعَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيِّ»<sup>(٢)</sup> فَيَعَجَبُ مِنْ ذَلِكَ وَيَقُولُ:

«هَذَانِ مَاتَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَكِنْ رَحْمَةً رَبَّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَسَوْفَ أَلْتَمِسُ لِقَاءَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فَأَسْأَلُهُمَا: بِمِ غُفْرٍ لِهَمَّا. فَيَتَدَيُّ زُهَيْرٌ، فَيَجِدُهُ شَابًا كَالزَّهْرَةِ الْجَنِّيَّةِ قَدْ وَهَبَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ وَبِيَّةٍ»<sup>(٣)</sup>، كَأَنَّهُ مَا لَيْسَ جِلْبَابَ هَرَمٍ، وَلَا تَأْفَفَ مِنَ الْبَرَمِ [...] .

فيقول: جَيْرَ جَيْرٍ! أنت «أبو كعب وبجير»؟

فيقول: نعم.

فيقول - أدام الله عزه - : بِمِ غُفْرٍ لَكَ وَقَدْ كُنْتَ فِي زَمَانِ الْفِتْرَةِ وَالنَّاسُ هَمَلٌ لَا يَحْسُنُ مِنْهُمْ الْعَمَلُ؟

فيقول: كَانَتْ نَفْسِي مِنَ الْبَاطِلِ نَفُورًا، فَصَادَفْتُ مَلَكًا غُفُورًا، وَكُنْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ [...] .

فيقول ألسْتَ الْقَاتِلَ:

وَقَدْ أَعْدُو عَلَى ثُبَّةٍ<sup>(٤)</sup> كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ يُجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حُمِيًّا الْكَأْسِ فِيهِمُ وَالْغِنَاءُ

أَفَأُطْلِقَتْ لَكَ الْخَمْرُ كَغَيْرِكَ مِنْ أَصْحَابِ الْخُلُودِ؟ أَمْ حُرِّمْتُ عَلَيْكَ مِثْلَ مَا حُرِّمْتُ عَلَى «أَعَشَى قَيْسٍ»؟ فَيَقُولُ «زُهَيْرٌ»: [...] وَهَلَكْتُ أَنَا وَالْخَمْرُ كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ، يَشْرِبُهَا أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَا حُجَّةَ عَلَيَّ»<sup>(٥)</sup>.

يغبر أبو العلاء الخطبة، شيئاً ما، مع النابغة الجعدى<sup>(٦)</sup> وحسان حيث نفتقد الخطوة الرابعة (د) فلا يسألها عما غفر لها به، لأنها شاعرين مخضرمين. فلم يكن

(١) زهير بن أبي سلمى المرزى من فحول الشعراء الجاهليين.

(٢) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي.

(٥) رسالة الغفران ص ١٨١-١٨٤.

(٣) الوبية: اللؤلؤة.

(٦) رسالة الغفران ص ٢٠٨.

(٤) الثبة: الجماعة.

هناك داع للسؤال، لكنه يقف معها وقفة طويلة لانتقاد أشعارها:  
«ويعر حسانُ بنُ ثابتٍ. فيقولون:

أهلاً أبا عبد الرحمن ألا تحدثُ معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا:  
أين هذه المشروبة من سبيئتك التي ذكرتُها في قولك؟

كأنَّ سبيئةً من بيتِ راسٍ يكونُ مزاجها عَسَلٌ وماءٌ  
على أنيابها، أو طعمَ غَضٍّ من التفاح هَصْرَهُ اجْتِنَاءٌ  
[...]. [يخبطُ في ضميره (ابن القارح) أشياء، يريدُ أن يذكرها «لحسان» وغيره،  
ثم يخافُ أن يكونوا لما طلب غير مُحسِنين فيضربُ عنها، إكراماً للجليس: مثلُ قول  
«حسان».

«يكون مزاجها عسلاً وماء»

يَعرض له أن يقول: كيف قلتَ يا أبا عبد الرحمن: أيكونُ مزاجها عَسَلٌ وماءٌ،  
أم مزاجها عَسَلًا وماءً، على الابتداء والخبر؟<sup>(١)</sup>

كما نفتقد نفس هذه الخطوة في حوار ابن القارح مع عوران قيس<sup>(٢)</sup>. لكنه،  
يستعاض عنها بالإشارة إلى انشغال هؤلاء عن الأدب والشعر، فالشماخ<sup>(٣)</sup> اندهش  
لنعيم الجنة وخيراتها. أما عمرو بن أحرر، وتميم بن أبي فلم تبق أهوال القيامة على  
شيء من أدبهما<sup>(٤)</sup>. ولعل أبا العلاء أراد أن يجعل حديثهما عن أهوال القيامة تمهيداً  
لنقل مشهد دخول ابن القارح الجنة وتفصيل الحكاية عن المراحل التي قطعها قبل  
أن يتمكن من ذلك.

(ب) في النار: ما إن نصل إلى الحوار مع أهل النار حتى نجد أبا العلاء (في  
شخص ابن القارح) يختصر الطريق فلا يبقى وفيًا لجل تلك الخطوات، بل يثب  
وثبة واحدة، وكأنه أحس برتابة مملة، أو شعر أن الإطالة أمام أهل النار شيء

(١) رسالة الغفران ص ٢٣٤-٢٣٦.

(٣) رسالة الغفران ص ٢٣٨.

(٢) رسالة الغفران ص ٢٣٧.

(٤) رسالة الغفران ص ٢٤٠.

لا يقبله الطبع، بلأهم فيه من عذاب أليم، وقد لا يكون هذا أو ذاك وإنما لأن مشهد النار لا يقتضى الإطالة لشدة الحرارة.

والأهم من ذلك هو اهتمام أبي العلاء بالانتقادات اللغوية إذا استعجل دون تمهيد، كما فعل مع أهل الجنة، الدخول إلى معالجة قضايا تتعلق بأشعارهم ما بين لغوية ونحوية وعروضية،... ويتجلى هذا بوضوح في سؤاله عن امرئ القيس. فما أن يُجَاب :

«ها هو ذا بحيثُ يسمَعك»

حتى يبدأ في نقاشه حول معلقته :

«يا أبا هند، إن رِواة البغداديين ينشِدون، في (قَفَانَبِك)، هذه الأبيات بِزِيَادَةِ الواوِ في أولها، أعنى قولك :

«وكانَ ذُرَى رَأْسِ المَجِيمِرِ عُذْوَةً»

وكذلك :

«وكانَ مكاكِيَّ الجِواءِ»

«وكانَ السَّبَاعَ فِيهِ غَرَقَى»

فيقول : أبعدَ اللهُ أولئك. لقد أساؤوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك، فأى فرقٍ يَقَعُ بين النُّظْم والنثر؟ وإنما ذلك شيءٌ فَعَلَهُ مَنْ لَأ غَرِيْزَةٌ لَهُ فِي مَعْرِفَةِ وَرَنِ الْقَرِيضِ، فَظَنَّهُ الْمُتَأَخَّرُونَ أَصْلًا فِي الْمَنْظُومِ، وَهِيهَاتَ هِيهَاتَ»<sup>(١)</sup>.

وقد صار أبو العلاء على نفس المنهج مع كل من «عنترة»<sup>(٢)</sup>، و«علقمة ابن عبدة»<sup>(٣)</sup> و«عمرو بن كلثوم»<sup>(٤)</sup> و«الحارث الشكري»<sup>(٥)</sup> و«طرفة ابن العبد»<sup>(٦)</sup> و«أوس بن حجر»<sup>(٧)</sup>.

(٥) رسالة الغفران ص ٣٣٢.

(٦) رسالة الغفران ص ٣٣٤.

(٧) رسالة الغفران ص ٣٣٩.

(١) رسالة الغفران ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) رسالة الغفران ص ٣٢٢.

(٣) رسالة الغفران ص ٣٢٧.

(٤) رسالة الغفران ص ٣٢٩.

## الاستطرادات العلائية :

( أ ) من الوصف إلى اللغة : اكتسحت الغفران ظاهرة الاستطرادات ، وتكاد تكون جميعها وقفات انتقادية تتعلق بقضايا اللغة والعروض والنحو ، وغيرها .  
انساق إليها أبو العلاء أثناء حوار بعض الشعراء ، فهو ينجر مثلاً في وصف مشهد من المشاهد إلى تحليل قضية لغوية ، كما فعل عند وصف الفقاع ، لقد خطرت لابن القارح صورة الأولاد يبيعون الفقاع في السلال ، فقاذه لفظ «السلال» إلى الحديث عن أصل الكلمة وذكر مقابلها ، في اللغة العربية ، مشاركاً في هذا النقاش اللغوي كبار أئمة اللغة ، يقول :

« ويخطر له (ابن القارح) ذِكرُ الفقَّاعِ الذي كان يُعمَلُ في الدارِ الخادِعةِ فيُجرى اللهُ بقُدْرتهِ أنهاراً من فقَّاعٍ [ . . . ] فيقولُ في نفسه [ . . . ] الذي أريدُ نحو ما كنتُ أراهُ مع الطَّوائفِ في الدارِ الذاهبةِ فلا تكْمُلُ هذه المقالةُ ، حتى يجمعُ اللهُ كلَّ فقَّاعيٍّ في الجنةِ ، من أهلِ العِراقِ والشامِ وغيرهما من البلادِ ، بين أيديهم الولدانُ المُخلدونُ يَحْمِلُونَ السَّلالَ إلى أهلِ ذلكِ المَجْلِسِ فيقول [ . . . ] لِمَنْ حَضَرَ من أهلِ العِلمِ :

مَا تُسَمَّى هذه السَّلالُ بالعربيَّةِ ؟

فَيْرُمُونَ ، أَى يَسْكُتُونَ ، ويقولُ بعضهم :

هذه تُسَمَّى البَوايسِنَ ، واحِدَتُها بايسِنَةٌ .

فيقول قائلٌ من الحاضرين :

مَنْ ذَكَرَ هذا من أهلِ اللغةِ ؟

فيقول (ابن القارح) قد ذكرها «ابنُ دَرَسْتَوَيْهِ»<sup>(١)</sup> وهو يومئذٍ في الحَضْرَةِ .

فيقول له «الخليلُ» من أين جِئْتَ بهذا الحَرْفِ ؟

(١) أحد أئمة المحوِّللأدب - توفي ببغداد عام ٣٤٧هـ .

فيقول ابنُ دَرَسْتَوِيهِ :

وَجَدْتُهُ فِي كُتُبِ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ.

فيقولُ «الخليلُ» :

أَحَقُّ هَذَا يَا نَضْرُ؟ فَأَنْتَ عِنْدَنَا الثَّقَةُ. فيقولُ «النَّضْرُ» : قَدْ التَّبَسَّ عَلَى الْأَمْرِ،  
وَلَمْ يَحْكِ الرَّجُلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَّا حَقًّا<sup>(١)</sup>.

مثل هذه الاستطرادات عند وصف أشياء ذكرت عرضاً، ما جاء في حديث أبي العلاء عما أعد لابن القارح في الجنة من جزاء لتمجيده الله في مستهل رسالته :  
أنهار من عسل مصفى ، ياخذ في وصفها ، ويستطرد في هذا الوصف إلى ذكر بيتي شعر للنمر بن تولب<sup>(٢)</sup> ورد فيها ذكر عسل مصفى ثم ينتقل إلى قص حكاية خلف ابن أحرر مع أصحابه عن هذين البيتين ، فينساق في التفريع عن هذه الحكاية بشكل غريب .

هذا التفريع يثبت ما لأبي العلاء من قدرة على الفقه بالغريب ، وما يتمتع به من صبر ومناعة في البحث والاستقراء . وقد نجد لهذا الحكم سنداً فيما يراه الأستاذ الصفدى حين يقول :

«ومن وقف على كلام أبي العلاء في رسالة الغفران في ذينك البيتين اللذين للنمر ابن تولب [ . . . ] وكيف غير القوافي منها ، ونزلها على سائر حروف المعجم ، خلا حرف الظاء ، علم تمكن أبي العلاء من الأدب واطلاعه على اللغة<sup>(٣)</sup> .

وخلافاً لما ادعاه الصفدى فإن أبا العلاء لم يستثن حرف الظاء ، إنه يثبته ويضيف ملاحظته بصدده ، فينص على أنه قليل ورود في العربية عموماً ، ثم يعطى مثلاً له :

«فإن قال : من أم حظ ، فإن الأظعمة تقل فيها الظاء لقلتها في غيرها ، لأن

(١) رسالة الغفران ص ٢٨٠ .

(٢) رسالة الغفران من ص ١٥٤ إلى ص ١٦٤ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠٥ .

الظاء قليلة جداً ويجوز أن يقول: حوارى بِكَظٌّ، أى يكظُّها الشَّبْعُ، أو نحو ذلك من الأشياء التى تدخل على الاحتيال»<sup>(١)</sup>.

إن أبا العلاء يجمع من ألفاظ الطعام المناسبة لمحتوى البيتين ما يفوق عدد حروف الهجاء العربية لأنه قد يعطى للحرف الواحد أكثر من مثال. ويتدرج فى اختيار تلك الألفاظ حسب حروف المعجم، مبتدئاً «بالمهزة»، ومنتهاياً «بالياء»، يصطحب كل لفظة بشرح مع شاهد أو شواهد. داخل هذه الاستطرادات اللغوية، ترد لفظة «أرز» فيذكر لها لغات ستاً ثم يقيمها من حيث الجودة والرداءة، يقول:

«فإن قال: أمُّ كُرْزٍ، فإنَّ أشبه ما يقول: وحوارى بأرْزٍ وفيه لغاتٌ ستٌ: أرزٌ على وزن أشد، وأرْزٌ على وزن صُمَّل، وأرْزٌ على وزن سُغَل، وأرْزٌ فى وزن قُفَل، ورزٌ مثل جُدِّ، ورُنزٌ - بنونٍ - وهى رديئة»<sup>(٢)</sup>.

بعد هذا الاستطراد الطويل يستأنف أبو العلاء وصف عسل الجنة فيذكر طائفة من أسماء النباتات المرة، ويشرح ما يبدو من بينها غريباً، قبل أن ينتقل لسرد شعر للحارث بن كلدة جاءت فيه لفظة «عسل» وآخر للهدلى<sup>(٣)</sup> فيه لفظ «السلى» مرادفاً لعسل: يقول:

«وكذلك السّلى التى ذكرها الهدلى [...] عَنَيْتُ قَوْلَ القائلِ:  
فَقَاسَمَهَا بِاللّهِ جَهْدًا لَا نَتَمُّ أَلدُّ مِنَ السّلى إِذَا مَا نَشُورُهَا»<sup>(٤)</sup>  
نشورها نَجْتِنِيهَا.

تلك نماذج للاستطرادات العلائية التى يغلب عليها الطابع اللغوى.

(ب) نتف شعرية: فى الغفران نوع آخر من الاستطرادات، وهو عبارة عن سرد نتف شعرية، لشعراء متعددين تجمعها والموضوع الذى يصفه أبو العلاء

(٣) أبو ذؤيب الهدلى شاعر مخضرم.

(٤) رسالة الغفران ص ١٦٦-١٦٧.

(١) رسالة الغفران ص ١٦٢.

(٢) رسالة الغفران ص ١٦٠.

صلة ما . وهذا ما نجده مثلاً، في تفصيه لأشعار ورد فيها ذكر لفظه « الرباب » على لسان الأعشى، في مشهد شجار دار بينه وبين النابغة الجعدي<sup>(١)</sup>.

وهذا ما ورد في وصفه لأباريق ذكرت استطراداً في حديث عن شجر أعيد لابن القارح في الجنة، تجرى في أصوله أنهار يُغْتَرَفُ منها بكؤوس من عسجد وأباريق خلقت من الزبرجد. يصف أبو العلاء تلك الأباريق، فيذكر أبا الهندي وشعرًا له يستوقفه ما به من خروج عن قواعد النحو والعروض :

سَيْغِي أبا الهندي عن وَطْبِ سالمٍ أباريقُ لم يعلق بها وَضْرُ الزُّبَيْدِ  
مُفَدِّمَةٌ قَزًا، كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ بناتِ الماءِ أَفزعها الرُّعْدُ  
ثم يعلق أبو العلاء على هذين البيتين قائلاً :

« هكذا ينشد على الأقواء، وبعضهم ينشد :

« رقاب بنات الماء ريعت من الرعد »

والرواية الأولى إنشاد النحويين . وأبو الهندي إسلاميٌ، واسمُه عبد المؤمن ابن عبد القدوس، وهذان اسمان شرعيان، وما اشتهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيحٌ . فإن كان « أبو الهندي » من كتب وعرف حروف المعجم، فقد أساء في الإقواء، وإن كان بَنَى الأبيات على السكون، فقد صحَّ قول « سعيد ابن مسعدة »<sup>(٢)</sup>، في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرُب<sup>(٣)</sup>.

بعد هذه الوقفة، يعود أبو العلاء ليتابع وصف الأباريق، فيتسرد إلى ذكر شعر أبي زبيد الطارثي، فيثبت للفظه « إباريق » ثلاثة شروح، لكل واحد منها يسوق استشهاده شعرياً يؤيده، فيذكر ابن أحر، فعلقمة، مقارناً لإبريقه الذي ذكره في بيت شعر له، بأباريق الجنة. إثر ذلك ينتقل إلى الموازنة بين هذه الأباريق وبين الخمر والريق. ويستمر في الوصف مستطرداً إلى سرد شعر لعدي بن زيد، وهو

(١) رسالة الغفران ص ٢٢٤ .

(٢) هو أبو الحسن، الأخفش الأوسط، من أكابر أئمة النحويين البصريين، مات في القرن الثالث الهجري .

(٣) الغفران ص ١٤٣ .

خامس الشعراء الذين ذكرهم. وبهذا الصدد يقص حادثة جرت له، في بغداد، تتعلق بقصيدة «عدى»، وينتقل إلى ذكر شاعر سادس، هو «الأقشير الأسدي»، ثم إلى شاعر سابع، هو «إياس بن الأرت» وأخيراً يتوجه للعجاج لينقد خلطه في رجزه العلبط بالسجاج<sup>(١)</sup>، قبل أن يذكر رجزاً له وردت فيه لفظة «إبريق». الشكل التالي يعطينا رسماً توضيحياً لتسلسل الاستطراد في ذكر نتف شعرية وانتقادات لغوية، خلال وصف أبي العلاء لأباريق الجنة.

(١) رسالة الغفران ص ١٤٨ العلبط اللبن الخائر جداً، والسجاج اللبن المرقوق بالماء ومعنى العبارة أن العجاج - في رأي أبي العلاء - كان في رجزه يخلط الغث بالسمين.

وصف أباريق الجنة



استقصاء أشعار ورد فيها لفظ إبريق لـ:



١ - الهذلي

↓ (لغة + عروض)

٢ - أبي زيد

↓ (شروح للقطعة إبريق)

٣ - ابن أحرر



٤ - علقمة

↓ (موازنة بين خمرة وريق)

٥ - عدي

↓ (أخبار عن نسخ ديوانه في دار العلم)

٦ - الأقيشر الأسدي



٧ - إياس بن الأثر



٨ - العجاج

↓ (لغة)

استغرق هذا الوصف

سبع صفحات

من ص ١٤٢-١٤٨

(ج) أشخاص وأسماء : من الاستطرادات ما ينجر إليه أبو العلاء لتوارد الخواطر فيسترسل في ذكر كل ما له مساس، قريب أو بعيد، بموضوع أو بلفظة يشرحها، وقد جاء هذا مثلاً في الحديث عن حبه لابن القارح، إذ عبر عن ذلك بثلاث صور كلها شروح لغوية، ولكنه استطرد بشكل خاص، غريب في الصورة الثالثة<sup>(١)</sup> : لقد سمى قلبه «أسود» وذكر بهذا الصدد ما يزيد على أحد عشر شخصاً ممن يسمون بهذا الاسم، بالإضافة إلى استقصاء طائفة ممن لهم أدنى اشتراك لفظي أو معنوي بكلمة «أسود» قبل أن يستطرد من جديد (داخل الاستطراد) إلى ذكر مقابل «الأسود» أي الأبيض وشرحه، كما سئرى ذلك في موضع آخر.

مثال آخر لهذا النوع من الاستطرادات، هو حديث أبي العلاء عن دنانير ابن القارح التي سرقها منه بنت أخته. إذ يذكر أبو العلاء أكثر من ٢٨ شخصاً، ما بين شاعر وغيره ممن ذكر الدنانير أو وصفها فتعرض «لدينار النخعة» و«دينار الأخطل» و«الدنانير الهرقلية» التي ذكرها «كثير عزة»، يقول :

«لو رآها [دنانير ابن القارح] كثير عزة لألى أوكد أليّه، أنّها أحسن من الهرقلية، التي شبه بمنفردا نفسه فقال :

«يروق عيون الناظرين كأنه هرقل وزن، أحمر التبر، راجح»<sup>(٢)</sup>

عجيب أمر أبي العلاء لا يكتفى بهذا النوع من الاستطراد، بل يفتح أقواساً داخلها. فبصدد ذكر عدد دنانير ابن القارح الثمانون، انقادت مخيلته إلى الحديث عن هذا العدد وعن أعداد أخرى، متناسياً «دينار» و«دنانير» ويسوق حوالى عشرين استشهاداً مما له أدنى علاقة بلفظ «ثمانين». يقول :

«وإن كانت زائدة على الثمانين، فقد أوفت على عدّة «أصحاب موسى» [ . . . ] ولو كان الإنسان في قلب عمقه ثمانون قامة لجاز أن تستنقذه هذه المصفرة من غير مرض . . .»<sup>(٣)</sup>

(١) رسالة الغفران ص ١٣٢.

(٢) رسالة الغفران ص ٥٧٠.

(٣) رسالة الغفران ص ٥٧١، الحديث عن الدنانير استغرق من ص ٥٥٩ إلى ٥٧٨.

## الشروح اللغوية :

لا نغفل الإشارة إلى ظاهرة هامة، هي الشروح اللغوية وإن جاز لنا نعتناها بـ«القاموسية»، فكلما شعر أبو العلاء بصعوبة كلمة جاءت في تعابيره، شرحها. كقوله :

«ولكني أنفذُ معك تَوْرًا، أى رَسُولًا»<sup>(١)</sup>

«فَلَيْحٍ يِ، عند ذلك، أى صُرِعْتُ إلى الأرض»<sup>(٢)</sup>

«فَأَخَذَنِي الهَلْعُ والقِلُّ، أى الرَّعْدَةُ»<sup>(٣)</sup>

«والغِضْرُمُ ترابٌ يُشَبُّهُ الجِصُّ»<sup>(٤)</sup>

إن أمثال هذه الشروح كثيرة الورود في الرسالة وسنخصص فصلاً لدراساتها، نيين فيه المنهجية التي اتبعها أبو العلاء في معالجتها.

## الجميل الدعائية :

هناك ظاهرة أخرى تثير الانتباه هي انتشار الجمل الدعائية، فمثلاً لا يكاد أبو العلاء يذكر ابن القارح باسمه، أو بضمير يعود عليه، إلا ويدعوله، مثل :

«فيقول [ابن القارح] لا زال مِقْوَالًا للخَيْرِ»<sup>(٥)</sup>

«فيقول: أَيَّدَ اللهُ الفِضْلَ بزيادةٍ مُدَّتِهِ»<sup>(٦)</sup>

- «... مولاى الشيخ الجليل، كَبَتَ اللهُ عُدُوَّهُ وَأَدَامَ رَوَاحَهُ إِلَى الفِضْلِ وَغُدُوَّهُ»<sup>(٧)</sup>.

وتتنوع الجمل الدعائية تنوعاً مذهلاً، إذ قلما تتكرر نفس الجملة، كما أنها قد

(٥) رسالة الغفران ص ٢٤٠.

(٦) رسالة الغفران ص ٢٠٦.

(٧) رسالة الغفران ص ١٢٩.

(١) رسالة الغفران ص ٢٥٤.

(٢) رسالة الغفران ص ٢٥٦.

(٣) رسالة الغفران ص ٢٥٦.

(٤) رسالة الغفران ص ٢٥٠.

تأتى عنواناً للموضوع الذى سيطرقه، فتناسب كلماتها، لفظاً ومعنى، الحديث الذى يفتحه، كما فى المثال التالى :

« ويعرض له [لابن القارح] - أدام الله الجمال ببقائه - الشوق إلى نظر سحاب كالسحاب الذى وصفه قائل هذه القصيدة [...] فَيُنشِئُ اللهُ تَعَالَتْ أَلْوُهُ، سحابةً كأحسن ما يكون من السحب، من نظر إليها، شهد أنه لم ير قط شيئاً أحسن منها، محلاة بالبرق فى وسطها وأطرافها، تمطر بماء ورد الجنة من ظل وطش، وتشر حصى الكافور كأنه صغار البرد»<sup>(١)</sup>.

يبدو جلياً، أن تعرض أبى العلاء لوصف السحاب كان متميزاً بإبراز مظاهر الجمال والحسن فيه، فكان للفظ «الجمال» الذى استعمله فى الجملة الدعائية دلالة موحية لما سيصفه أبو العلاء فى مشهد السحاب.

#### الألفاظ الغريبة :

فى رسالة الغفران ألفاظ غريبة لم يشرحها أبو العلاء، ولعله لم يفعل لأن ما يبدو لنا غريباً كان فى عصر المؤلف غير غريب ولو لم يكن كذلك، لشرحه كما شرح كثيراً من الألفاظ.

إن القارئ اليوم لن يفهم فقرات عديدة من الرسالة إذا لم يستفسر المعاجم العربية عن معنى الكثير من الكلمات كما فى قوله :

- «ولصار الصمر كأنه رائحة خزامى سهل»<sup>(٢)</sup>.

الصمر: التنن

- «تُدِيرُ بَعْضَهَا [أرحاء] جِمالَ تَسومِ فى عِضاهِ الفِرْدَوْسِ»<sup>(٣)</sup>.

سامت الماشية = خرجت إلى المرعى.

العضاه، كل شجر يعظم وله شوك. واحدته عضة وعضاهة.

(٣) رسالة الغفران ص ٢٧٠.

(١) رسالة الغفران ص ٢٧٦.

(٢) رسالة الغفران ص ١٦٨.

- «كأبجاج العكارم»<sup>(١)</sup>.
- أبجاج جمع بيج : فرخ الطائر.  
العكارم مفردة عكرمة : أنثى الحمام.
- «كنت أقيم عشر ليال، أو أكثر، لا أقدر على العكرشة ولا القواع»<sup>(٢)</sup>.
- العكرشة : أنثى الأرنب.  
القواع : ذكر الأرنب.
- ويمر بأبيات ليس لها سُموق أبيات الجنة»<sup>(٣)</sup>.
- السموق : العلو والارتفاع.
- «ويكونُ فيهم الأعرج أو الأبخق»<sup>(٤)</sup>.
- الأبخق = الأعور أقبح العور.
- «فجعلوا يتفكئون»<sup>(٥)</sup>.
- تفكن = تعجب وتفكر
- «وهي ذاتُ أدحالٍ وغَماليل»<sup>(٦)</sup>.
- الأدحال = جمع دحل، وهو النقب الضيق الأعلى، الواسع من أسفل، يخزن فيه ماء المطر، وينزل الناس عنده إذا قل الماء.
- الغماليل = جمع غملول كعصفور، وهو الوادي ذو الشجر، وكل مجتمع أظلم وتراكم من شجر أو غمام أو ظلمة.
- «وإنما كانت تخطرُ بهم أطيْفالٌ منا عارمون، فتتفتُّ إليهم مقدارَ الضوازة من أراكِ نَعمان»<sup>(٧)</sup>.
- عارمون : جمع عارم، وهو الشرس من عرم يعرم عراماً وعرامة أشتد.  
الضوازة، شظية من السواك.

(٤) رسالة الغفران ص ٣٣٠.

(٥) رسالة الغفران ص ٢٩٤.

(٦) رسالة الغفران ص ٢٩٠.

(٧) رسالة الغفران ص ٢٩١ نعمان : بالفتح والسكون، واد بين مكة والطائف يثبت به الأراك.

(١) رسالة الغفران ص ٢٧١.

(٢) رسالة الغفران ص ٣٠٦.

(٣) رسالة الغفران ص ٣٧٣.

أمثال هاته الألفاظ الغربية كثير الورد في الرسالة بفصلها، وإنما، لتستحق وحدها دراسة وافية يعتمدها المعجميون.

### الترادف:

لا يألو أبو العلاء جهداً في إيراد العديد من المترادفات للمسمى الواحد وقد يكون من الأسباب التي دفعته إلى ذلك ما يلي:

(أ) السجع: إن ولع أبي العلاء بالسجع جره إلى استغلال المترادفات لإشباع نهمه وذلك كما في قوله:

« فكيف يُعتَبُّ على الفَاهِينِ، وينتَقَمُ من القومِ السَّاهِينِ »<sup>(١)</sup>  
 فلفظ « الفاهين » يرادف لفظ « الساهين ».

(ب) تلافيه لتكرار نفس اللفظ في الفقرة الواحدة، كما في قوله:  
 « وينصرفُ مولاى الشيخَ الجليلُ وصاحبهُ «عَدِيٌّ»، فإذا هما برجلٍ يَحْتَلِبُ ناقةً  
 فى إناءٍ من ذَهَبٍ، فيقولان:  
 من الرجل؟ فيقول:  
 أبو ذُؤَيْبِ الهَدْلِيِّ.

فيقولان: حُيِّتَ وسِعِدَتَ، لاشَقِيَّتَ فى عَيْشِكَ ولا بَعَدَتَ، أَمْتَحَلِبُ مع أَنهارِ  
 لَبَنٍ؟ كَأَنَّ ذلكَ من العَبِينِ<sup>(٢)</sup>.

فيقول: لا بأس! إِنَّمَا خَطَرَ لى ذلكَ مثلما خَطَرَ لَكُما القَنِيصُ، وإنى ذَكَرْتُ قولى  
 فى الدهرِ الأول:

وَإِنَّ حَدِيثًا مِنْكَ لو تَعَلَّمِينَهُ جَنَى النَحْلِ فى أَلْبَانِ عُوذٍ مَطَافِلِ

[...]

(١) الرسالة ص ٣٩٧ فما ينهوه فهو: سها.

(٢) الغين: يسكون الباء وفتحها: الحمق وضعف الرأى.

فَقِيضَ اللهُ بِقُدْرَتِهِ لِي هَذِهِ النَّاقَةَ عَائِدًا<sup>(١)</sup> مُطْفِئًا، وَكَانَ بِالنَّعْمِ مُتَكَفِّلاً، فَقُمْتَ  
أَحْتَلِبُ عَلَى الْعَادَةِ [...] .

فَإِذَا امْتَلَأَ إِنَاؤُهُ مِنَ الرَّسْلِ، كَوَّنَ الْبَارِي - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - خَلِيَّةً مِنَ الْجَوْهَرِ،  
رَتَعَ نُوْلَهَا فِي الرَّهْرِ، فَاجْتَنَى ذَلِكَ «أَبُو ذُوَيْبٍ» وَمَزَجَ حَلِيْبَهُ بِلَارَيْبٍ<sup>(٢)</sup>.

لقد ساق أبو العلاء في هذا النموذج ثلاثة ألفاظ مترادفة هي :

لبن - رسل - حليب

ولعله رمى بذلك إلى اجتناب التكرار. ومثل صنيعه هذا ما جاء في حديثه عن  
عسل الجنة حيث ذكر «السلوى» و«الأرى» وكلاهما من أسماء العسل<sup>(٣)</sup>، وقريب  
من ذلك ما فعله عند استقصاء أسماء المعقيات وسردها الواحد تلو الآخر<sup>(٤)</sup>.

(ج) إيراد المترادف رغبة في إظهار براعته في اللغة.

مهما تكن الأسباب فإن ظاهرة انتشار المترادفات تبدو واضحة بالرسالة. وقد  
يختار أبو العلاء لإيرادها سببها في جمل مترادفة تسير على نفس الوتيرة كما في النص  
التالي الذي يضم من أسماء الخمر وصفاتها تسعة عشر اسماً :

«وَالسُّكْرُ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ الْمَلَلِ [...] لُعْنَتِ الْقَهْوَةِ، فَكَمْ تَهْبِطُ بِهَا رَهْوَةٌ، لَا خَيْرَةَ  
فِي الْخَمْرِ، تَوَطَّىءُ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ. مَنْ اصْطَبِحَ فِيهِجًا، فَقَدْ سَلَكَ إِلَى الدَّاهِيَةِ  
مَنْهَجًا. مَنْ اغْتَبَقَ أُمَّ لَيْلَى، فَقَدْ سَحَبَ فِي الْبَاطِلِ ذَيْلًا، مِنْ غَيْرِي بِأَمِّ زَنْبُقٍ، فَقَدْ  
سَمَحَ بِالْعَقْلِ الْمَوْتِقِ. مَنْ حَمَلَ بِالرَّاحَةِ رَاحًا، فَقَدْ أَسْرَعَ لِلرَّشْدِ سَرَّاحًا، مِنْ  
رَضِي بِصُحْبَةِ الْعُقَارِ، فَقَدْ خَلَعَ ثَوْبَ الْوَقَارِ. مَنْ أَدْمَنَ قَرْقَفًا فَلَيْسَ عَلَى الْوَاضِحَةِ  
مَوْقِفًا، مَنْ سَدِكَ بِالْخُرْطُومِ، رَجَعَ إِلَى حَالِ الْمَقْطُومِ. الْمَوَاطِبَةُ عَلَى الْعَانِي، تَمْنَعُ  
بَلُوغَ الْأَمَانِي. الْخَلِيَّةُ لِسَبِيئَةٍ تُخْرَجُ مِنْ سِرِّ كُلِّ خَبِيئَةٍ. لَا فَائِدَةَ فِي الْكُمَيْتِ، تَجْعَلُ

(١) ناقة عائذ: الحديثة التاج - مطافل جمع مطلق: الناقة إثر وضعها لولدها بأيام.

(٢) رسالة الغفران ص ١٩٩-٢٠٠.

(٣) انظر ص ١٦٤-١٦٨ من الرسالة.

(٤) نفس الصفحات السابقة.

حَيْهًا مِثْلَ الْمَيْتِ. مِنْ بَيْلٍ بِالصَّرْحِ دَيْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفَاضِحَةِ بِالْمَفْدَى، مَا أُخَوِّنَ عَهودَ السُّلَافِ تَنْقُضَ مَرِيرَ الْأَحْلَافِ. أَمَا السُّلَافَةُ فَسُلٌّ وَآفَةٌ. كَمْ شَابٌّ مِنْ بَنِي كِلَابٍ مَاتَ عَبْطَةً، وَمَا بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا غِبْطَةً، رَمَاهُ بِسُحَافٍ قَاتِلٍ، إِدْمَانُ الْمُعْتَقَةِ ذَاتِ الْمُخَاتَلِ. مِنْ بَكَرٍ إِلَى الشُّمُولِ فَرَأْيُهُ يَنْظُرُ بِطَرْفٍ مَسْمُولٍ. أَقْلُ عَتًّا مِنْ كَرِينَةٍ<sup>(١)</sup> لَيْثٌ زَأَرَ فِي الْعَرِينَةِ (...). وَيَنْبَغِي أَنْ يَزْهَدَهُ فِي الصَّهْبَاءِ الصَّافِيَةِ أَنْ نَدَامَاهُ الْأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْأَجْدَاثِ الْعَافِيَةِ»<sup>(٢)</sup>.

ليس ما بالنص أعلاه من أسماء للخمر وصفاتها كل ماورد في رسالة الغفران، بل وردت لها أسماء أخرى متفرقة ذكرها أبو العلاء بصدده وصفه لأنهار الجنة في القسم الأول من الرسالة، كقوله:

«... وَمَا عُمِلَ مِنْ أَجْنَسِ الْمَسْكِرَاتِ، مَفُوقَاتٍ لِلشَّارِبِ وَمَوْكَرَاتِ، كَالْجَعَةِ، وَالْبَيْعِ، وَالْمِزْرِ وَالسُّكْرَةِ ذَاتِ الْوِزْرِ»<sup>(٣)</sup>.

فإذا كانت لفظة الخمر هي الاسم الجامع كما يرى الثعالبي<sup>(٤)</sup>، وما عداها من الأسماء هو صفات لها. فها نحن نرى إلى أي حد استطاع أبو العلاء أن يستقصى من أسماء وأجناس الخمر وصفاتها ما لا نجد حتى عند الثعالبي الذي خصص لذلك فصولا، مثل: أم زئبق، أم ليلي، سبيثة، وبالإضافة إلى ذلك برع أبو العلاء في سياقه تلك الأسماء في جمل مسجعة لا تخلو من فنية أدبية.

#### الخطبة التركيبية:

ملاحظة أخيرة تثير الانتباه هي الفرق بين التراكيب اللغوية التي اعتمدها أبو العلاء في القسم الأول من الرسالة، وبين نظيراتها في القسم الثاني.

قلنا سابقا إن الغفران قسمان، يمتاز كل واحد منها بأسلوب يقتضيه المضمون. فالأول وصف لرحلة ابن القارح في الآخرة، جنة وجحيماً. والجنة نعيم، وحوار

(١) الكرينة: المغنية الضاربة بالعود. سمل عينة = فقاها

(٢) انظر الرسالة: ص ٥٥٥-٥٥٧.

(٣) رسالة الغفران ص ١٥٣.

(٤) انظر كتابه فقه اللغة، «فصل في تقسيم أجناسها»، ص ٤٠٢.

عين، وشراب فيه لذة للشاربين. الجنة عالم لا كعالمنا، فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، عالم فيه تنطلق المخيلة سابحة في عالم ما فوق المحسوسات خارج كل رقابة أو إطار مسبق. لذا نجد أسلوب هذا القسم، يسير على أجنحة الخيال المبدع، والإبداع الدفاق.

ثم إن أوصاف الجنة والنعيم تبعث على التفاؤل، المتفائل يعمل دائماً للتحرر من القيود. فإذا تذكرنا أبا العلاء وهو رهين محابس ثلاثة، وتذكرنا ماعاناه من صدمات نفسانية، وهو المعتر بقوة شخصيته ومجده، إتضح لنا أن وصف الجنة عملية إعلاء بالنسبة لعواطف ورغبات المعرى المكبوتة، وأن وصف الجحيم تفجراً وتمرد على القيود المصطنعة، وانتقام من قساوة الحياة ومن محترفي الظلم والفساد.

لعل ذلك هو ما يبرر ما يميز القسم الأول من الرسالة من صياغة خاصة.

أما القسم الثاني، فعلى العكس من الأول، يتميز بالأسلوب التقريرى ويغلب على صياغته التأكيد لما يقتضيه المقام، وإن كان لا يخلو من مشاهد خيالية يعود فيها أبو العلاء إلى الأسلوب الوصفى، كما سنرى.

يبقى بعد هذا وذاك، فرض آخر، يتكامل مع الفرض السابق، دونما تناقض. تستقطب «رسالة الغفران»، «أبطالاً» تختلف ذهنياتهم ومشاربهم، وتباين أساليبهم، وبديهي أنه لا يمكن لشعراء اختلفت عصورهم أن يتحاوروا جميعاً بنفس الأسلوب. وقد لا نبتعد عن الموضوع إذا قلنا إن هذه مشكلة قائمة اليوم بين المسرحيين، خصوصاً في العالم العربى. إنهم يطرحون الازدواجية اللغوية في المسرح وفي الأدب عموماً: القصة، والرواية، والشعر.

لقد نشأت مشكلة ازدواجية اللغة العربية (الفصحى والعامية) منذ القرن العاشر بالشرق وإن كانت قد ازدادت حدة لأن الفصحى منذ عصورها الزاهرة كانت مهددة دائماً باللهجات والعجمة.

إن اللغة - أية لغة - ظاهرة تاريخية، مثلها مثل كل ما يساير تاريخ البشر، تحتاج إلى تطور وصيانة في تآن ولن يحل المشكل إلا جهود علماء اللغة المختصين، وإرادة الشعوب العربية، فكثيراً ما يتناول أنصار الفصحى الموضوع من الناحية

السياسية، والدينية، والعاطفية، ويتغافلون عن الناحية اللغوية والفنية التي تثرى اللغة وتطورها مع محافظة على أصالتها. في حين ينطلق أنصار العامية من اعتبارات أغلبها سياسية تستر، مثلاً وراء الدفاع عن الفن وشيوع الثقافة بين الجماهير، فيزعمون أن الأدب الروائي والقصصي والمسرحي المكتوب بالفصحى يخسر شعبيته، لأنه يعبر بتعابير ينقصها الدفء الصادق والحيوية الفنية، ولا يكون لها صدى عند الشعب.

بين أنصار العامية، وخصومها برزت طائفة تدعو شخصيات الروايات والقصص للحديث بأسلوب وسط، على سجيتهما، وهذا لا يعارض الحس القومي ولا العاطفة الدينية.

فلعل المشكل الذي عاناه المعرى شبيه بهذا الذي ضربنا به المثل: أيجوز أن ينطق شعراء من الجاهلية في حوارهم مع ابن القارح (وهو ابن القرن الخامس) بألفاظ إسلامية جديدة، وأخرى مولدة؟

لوفعل ذلك أبو العلاء، لكان عابثاً مع التاريخ، إن القرآن أثر في العربية تأثيراً واضحاً، كما أثرت الحياة المجتمعية الجديدة على ذهنية العرب وسلوكهم. هناك كلمات مثل «الصلاة» و«الزكاة» و«الكفارة».. ومفاهيم إسلامية لا قبل للشعراء الجاهليين بها، إنها مفاهيم تكوّن رؤية خاصة عن الوجود، والعلاقات بين البشر، وبين الشخص والأفعال التي هو مسئول عنها. لقد كانت ألفاظهم في معانيها الوضعية قاصرة عن أن تتناول تلك المواضيع الجديدة، وأن تشمل العلوم المحدثه، كالنحو، والعروض، والبلاغة.. ولم يفت أبا العلاء أن يثبت هذه الملاحظة وينص عليها في حوار بين ابن القارح وعدى ابن زيد العبادي الشاعر الجاهلي.

يقول: «إنك يا أبا سواده أحرزت فضيلةً سبق».

وما كنت أختار لك أن تقول: يا ليت شعري وأن ذو عجة

لأنك لا تخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون قد وصلت همزة القطع وذلك ردىء [..]، وإما أن تكون

حَقَّقَت الهمزة فجعلتها بينَ بينَ، ثم اجترأت على تصييرها أَلْفًا خالصةً [ . . . ]

ولو قلت: «ياليت شعري أنا ذو عَجَّةٍ»

فحذفت الواو، لكان عندي أحسنَ وأشبهه.

فيقولُ عدِيُّ بن زيد:

إِنَّمَا قُلْتُ كَمَا سَمِعْتُ أَهْلَ زَمَنِي يَقُولُونَ، وَحَدَّثْتُ لَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَشْيَاءَ لَيْسَ لَنَا بِهَا عِلْمٌ.

فيقول الشيخ:

لَا أَرَاكَ تَفْهَمُ مَا أُرِيدُهُ مِنَ الْأَغْرَاضِ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنِ بَيْتِكَ الَّذِي اسْتَشْهَدَ بِهِ «سَيبويه» وَهُوَ قَوْلُكَ:

أَرْوَاحٌ مَوْدَعٌ أَمْ بُكُورٌ أَنْتَ فَاَنْظُرْ لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ

فإنه يزعم أنَّ «أنتَ» يجوزُ أن يرتفعَ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ قَوْلُكَ فَاَنْظُرْ. وأنا أستبعد هذا المذهب، ولا أظنُّكَ أردتُه.

فيقولُ «عدِيُّ بنُ زيدٍ»:

«دعني من هذه الأباطيل! ولكني كنت في الدارِ الفانيةِ صاحبَ قنصٍ»<sup>(١)</sup>.

نجد، أيضاً، بالقسم الأول من «الرسالة»، إلى جانب محاورات بين شعراء جاهليين، لغويين من القرنين الثاني والثالث، ومناظرات بين أجيال عصور مختلفة، وأحاديث للجن<sup>(٢)</sup>، والوحش، والخور. فأية لغة يُعير أبو العلاء هاته المخلوقات البكم؟ ألغة الأعشى والجعدى، أم لغة المازنى والأصمعى؟ أيعددها من معاصريه فيجعلها تتكلم لغة ابن القارح؟ . . .

لن يجوز لأى متذوق للفنية القصصية أو الرواية أن يلزم المعرى باستعمال أسلوب واحد في جزئيات رسالته، رغم تباين عصور الشخصيات المتحاوره

(١) رسالة الغفران ص ١٩٠.

(٢) رسالة الغفران ص ١٩١.

ومستوياتها الثقافية والمجتمعية. فللنوع البشرى منطق غير منطق الطير، وغير منطق الحيات والجن.

يبقى أن نشير إلى بعض الملاحظات التركيبية التي تطبع كل قسم من قسمي الرسالة. وسنبداً بفصل الرحلة.

\*\*\*

في القسم الأول من الرسالة نجد منهجية الإطار الذي تقدم فيه المضامين عبارة عن وحدات أو مشاهد متوالية، يستقل كل منها بحوار ابن القارح مع إحدى الشخصيات التي تمثل دور البطل الثاني في المشهد.

جاءت هذه الوحدات متتابعة، يستهلها أبو العلاء بفعل مضارع غالباً، مسبوق بـ «واو» أو «فاء» أو «ثم» تارة للاستئناف وأخرى للعطف ليعبر عن الكيفية التي بها يتم اتصال ابن القارح بمحاوريه. وهامى بعض النماذج:

- «وينظرُ الشيخُ [ابن القارح] في رياضِ الجنةِ فيرى قصرين مُنيفين...»<sup>(١)</sup>
- «ثُمَّ ينصرفُ إلى عُبيدٍ...»<sup>(٢)</sup>
- «ويمرُّ من إوزِ الجنةِ...»<sup>(٣)</sup>
- «فيقولُ للشُّماخِ بنِ ضرارٍ...»<sup>(٤)</sup>
- «وتُمرُّ إوزةٌ مثلُ البُختيةِ...»<sup>(٥)</sup>
- «ويسألُ عن امرئِ القيسِ...»<sup>(٦)</sup>
- «وينظرُ فإذا عترةُ العبسيِّ...»<sup>(٧)</sup>
- «وينظرُ فإذا علقمةُ بنُ عبدةٍ...»<sup>(٨)</sup>
- «وينظرُ فإذا الحارثُ اليشكريُّ...»<sup>(٩)</sup>
- «ويعمدُ لسؤالِ طرفةِ بنِ العبدِ...»<sup>(١٠)</sup>

(١) رسالة الغفران، ص ١٨١.	(٦) رسالة الغفران، ص ٣١٣.
(٢) رسالة الغفران، ص ١٨٥.	(٧) رسالة الغفران، ص ٣٢٢.
(٣) رسالة الغفران، ص ٢١٢.	(٨) رسالة الغفران، ص ٣٢٧.
(٤) رسالة الغفران، ص ٢٣٨.	(٩) رسالة الغفران، ص ٣٣٢.
(٥) رسالة الغفران، ص ٢٨٣.	(١٠) رسالة الغفران، ص ٣٣٤.

- « ويسأل عن المرقش الأكبر... »<sup>(١)</sup>  
 - « وينعطف إلى المرقش الأصغر... »<sup>(٢)</sup>

تلك هي الخطة التركيبية التي صار عليها أبو العلاء في القسم الأول من رسالة الغفران. أما القسم الثاني فيها أن موضوعه يختلف عن موضوع سابقه، فإننا نجد الخطة التركيبية فيه مغايرة، على العموم.

جاءت أجوبة أبي العلاء عن أسئلة ابن القارح، هي أيضاً، عبارة عن وحدات تستقل كل وحدة منها بسؤال معين، وتتميز بكونها تبتدىء بجمل اسمية. وسنكتفى هنا بإيراد بعض الشواهد تاركين تفصيل القول في البناء التركيبى للجمل بكلا القسمين إلى الباب الثاني من هذه الدراسة:

- «أما ما ذكره من حالي [...] فلطالما أعطى الوثنُ سعوداً»<sup>(٣)</sup>  
 - «وأما وروده حلب - حرسها الله - فلو كانت تعقلُ لفِرحت به...»<sup>(٤)</sup>  
 - «وأما أبو القطرانِ الأسدي، وأى البشر من الخطوب مَفِيدى فصاحبِ غَزَلٍ وتَبَطُلٍ»<sup>(٥)</sup>  
 - «وأما منْ فَقَدَهُ من الأصدِقاءَ لَمَّا دخل حلب، حرسها الله، فتلك عادة الزُمنِ»<sup>(٦)</sup>  
 - «فأما الفصلُ الذى ذكر فيه الخليل، فقد سقطَ منه اسمُ الذى غَلَفِي...»<sup>(٧)</sup>  
 - «وأما أبو الفرجِ الزَّهرجى فمعرِفته بالشَّيخِ تُقسَمُ أَنَّهُ للأدبِ حَليفٌ»<sup>(٨)</sup>  
 - «وأما شكواه إلى، فإنى وإياه لَكَمَا قيل فى المثل...»<sup>(٩)</sup>  
 - «وأما الذين ذَكَرَهُم من المصحفينِ فغير البرّة ولا المتصنِّعين»<sup>(١٠)</sup>

(٦) رسالة الغفران، ص ٤٠٢.  
 (٧) رسالة الغفران، ص ٤٠٣.  
 (٨) رسالة الغفران، ص ٤٠٤.  
 (٩) رسالة الغفران، ص ٤٠٩.  
 (١٠) رسالة الغفران، ص ٢١٢.

(١) رسالة الغفران، ص ٣٥٥.  
 (٢) رسالة الغفران، ص ٣٥٧.  
 (٣) رسالة الغفران، ص ٣٨٧.  
 (٤) رسالة الغفران، ص ٣٩٣.  
 (٥) رسالة الغفران، ص ٣٩٦.

- «فأما ما ذكره من قول أبي الطيب [ . . . ] فقد كان الرجلُ مؤلَعاً بالتصغير»<sup>(١)</sup>
- «وأما غيظه على الزنادقة والملحدّين، فأجره الله عليه»<sup>(٢)</sup>
- «فأما الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور»<sup>(٣)</sup>
- «وأما ابن الراوندى، فلم يكن إلى المصلحة بمهدى»<sup>(٤)</sup>
- «وأما العلماء الذين لقيهم، فأولئك مصابيح الناجية»<sup>(٥)</sup>

ومما يختص به أسلوب المعرى كذلك، في هذا القسم، هو أنه يتحدث إلى ابن القارح، ولكن لا يوجه إليه الخطاب مباشرة. وإنما يستعمل ضمير المفرد الغائب، مرة المتصل، وأخرى المنفصل وثالثة المستمر. وقد يجمع بين نوعين من الضمائر، كما قد يلقبه «الشيخ» أو «مولاي الشيخ».

هذه الأمثلة قليلة من كثير، فما تطرق أبو العلاء للرد على سؤال إلا استعمل أمثال هذه التراكيب، وحتى عند تحليله لبعض القضايا الثانوية أثناء الجواب. ومما يثير الانتباه منهجه في انتقاد الخصوم: يأخذ المعرى عناوين كتب وأسماء أشخاص ويستثمر الألفاظ المكونة منها في فنية لطيفة تنبئ عن ذكاء صاحبنا ومقدرته على التلاعب بمعاني الألفاظ. وهذه المشاكلة اللفظية، هي أيضاً، تعتمد في صياغتها نفس التراكيب السابقة، مثل ذلك ما جاء في الحديث عن ابن الراوندى «وتفصيل الكلام على مؤلفاته. يقول.

- «وأما (تأجه)، فلا يصلح أن يكون نَعْلًا»<sup>(٦)</sup>.
- «وأما (الدامغ) فما إخاله دَمغ إلا من أَلْفه، وبِسوء الخلافة خَلْفه»<sup>(٧)</sup>.
- «وأما (القضيب) فمن عَمِله أخصرُ صفقة من قضيب»<sup>(٨)</sup>.

(١) رسالة الغفران، ص ٤١٤. (٥) رسالة الغفران، ص ٥٣١.  
 (٢) رسالة الغفران، ص ٤٢٨. (٦) رسالة الغفران، ص ٤٦٩.  
 (٣) رسالة الغفران، ص ٤٥٢. (٧) رسالة الغفران، ص ٤٧١.  
 (٤) رسالة الغفران، ص ٤٦٩. (٨) رسالة الغفران، ص ٤٧٣، القضيب هنا: الناقة لم تروض.

- «وأما (الفريدُ) فأفردهُ من كلِّ خَليلٍ . . .»<sup>(١)</sup>.
- «وأما (المرجانُ) فإذا قيلَ إنه صغارُ اللؤلؤ، فمعادَ الله أن يكونَ (مرجانه) صِغارَ حَصَى»<sup>(٢)</sup>.

هذا التسلسل في التعبير المتماثل يدفعنا إلى تساؤل هو: هل كان أبو العلاء يستلذ بترداد تلك التعابير الموقعة التي كثيراً ما كانت تسير على وتيرة واحدة وكأنها لازمة نثرية، أم مرد ذلك إلى عماه وطبيعة الإملاء؟ لعل للأمرين أكبر الأثر في خضوع قسمي الرسالة إلى نوع خاص من الأسلوب يقتضيه موضوع كل منهما.

لم يحل هذا التنوع الأسلوبى بين ما كان يرمى إليه أبو العلاء من الجمع بين الفنية والموسوعية، الشيء الذى جعل الرسالة تأتى كدائرة معارف لغوية ورائعة من الروائع الفنية. لقد حرص أبو العلاء في القسم الأول خاصة، على تحقيق الجانب الفنى باستيفاء شروط الإبداع الروائى، كما تخيله، وكما يود أن يجعلنا نتخيله فنعيش معه الخيال واقعاً مشخصاً، وكان من منهجيته أن اختار لتلك الرحلة البعيدة، (بطلا) معاصراً معروفاً، لكى تنمو الظلال المتشابكة بين الحقيقة والخيال، وحتى نظن أن «العالم الآخر» حقيقة.

ذاك ما ألزم أبا العلاء بأن يُعدد في «غفرانه» الأساليب والصيغ. وإن اختلاف الأساليب ذاك ليتطلب جهداً كبيراً وموهبة خاصة، لم يعجز أبو العلاء عن إظهارهما في قسمي الرسالة على اختلافهما، بالانتقال من الوصف إلى التقرير، ومن التقرير إلى الوصف.

إن يكن صاحبنا قد التزم في القسم الثانى من الرسالة بالإجابة عن أسئلة ابن القارح التى تتطلب الاعتماد على أساليب علمية تقريرية بعيدة عن الابتكار والوصف المتداخل، فإن التزامه ذاك لم يمنعه من الارتقاء، من جديد، بين أحضان الوصف مرات عديدة فتتجلى من جديد، وبقوة، نزعتة إلى الخيال وبراعته في الانتقال من الأسلوب العلمى التقريرى إلى الأسلوب الوصفى ذى الجمل

(١) رسالة الغفران، ص ٤٧٤.

(٢) رسالة الغفران، ص ٤٧٦.

والتراكيب الطويلة، وذلك كما في حديثه عن توبة ابن القارح<sup>(١)</sup>، ومثل ما جاء في تعليقه على آراء مراسله أبي تمام إذ يقول:

«وأما أبو تمام<sup>(٢)</sup> فما أمسك من الدين بزمام. والحكاية عن ابن رجاء<sup>(٣)</sup> مشهورة والمهجة بعيها مبهورة. فإن قذِفَ في النارِ «حبيب»<sup>(٤)</sup>. فما تُغنى المدح ولا التشبيب. ولو أن القصائد لها علمٌ وتأسف لما يشكو الخلم<sup>(٥)</sup>، لأقامت عليه (المدودتان) اللتان في أول ديوانه مائماً يُعجبُ لأسوانه. فناختا عليه كابنتي «ليبيد»، وجرعتاهما من الشُّكلِ نظيرُ الهبيد.

[...] وكأني بهما لو قضي ذلك، لا جتمعت إليهما (المدودات) كما تجتمع نساء معدودات. فيجئن من كل أوب، ويتواعدن لحفل على نوب. ولو فعلن ذلك لبارتهن (البائيات)، بمائم أعظم ريننا، وأشد في الحنّس حيننا، [...].

وإذا كان مائم (المدودات)، في مائةٍ ممن يُسعدهنَّ ويُظاهرُ، وجب أن يكون مائم (البائيات)، في آلافٍ تُعلنُ وتُجاهرُ، لأنّ الباء طريقُ ركوب، والمد في القصائد سبيل منكوب.

وما نظمه على التاء، فإنه لا يُعجزُ عن الإيتاء.

وتجىء (الثائيات)، وكلتاها كائنة الجون، تبتدرُ في حالِك اللون. ولو صوّرتا من الأدميات، لزادتا على قيتي ابن خطل<sup>(٦)</sup> في المرثيات، وإن التاء لقليلة في شعر العرب إلا أنهما تستعينان كلمة «كثير».

جبال سلامة أضحت رثاءً فسيقا لها جُداً أو رماثا

(١) رسالة الغفران، ص ٥١٧.

(٢) انظر حديث ابن القارح عن أبي تمام الرسالة ص ٤١٢.

(٣) الحسين بن رجاء بن أبي الضحاك من أعلام القرن الثالث، مدحه أبو تمام.

(٤) حبيب: بن أوس الطائي أبو تمام.

(٥) الخلم الصديق والخل.

(٦) ابن خطل: عبد الله بن خطل، أحد الذين عهد النبي لأمرائهم يوم الفتح بقتلهم ولو وجدوه تحت أستار الكعبة، وكانت له قيتان تغنيان بهجو النبي فأمر بقتلها، وقد قتلت إحداهما وفرت الأخرى.

وبأراجيز «رؤية» وما كان نحوها من القوافي المتكلفة، والأشعار المتعسفة. ولهما فيما نظم «ابن دُرَيْدٍ» أعوانٌ بالعَجَلِ والرُّويدِ.

فأما (الداليات)، و (الرائيات) وما بُني على الحروفِ الدُّلِّلِ : كالميم والعين واللام وما جرى مجراهنَّ، فلو اجتمع كل حيزٍ منهنَّ وهو خِرَادٌ لضاقَ عنهنَّ الصَّدْرُ والإيراد، وَزَدْنَ على ما ذُكِرَ أنه اجتمع في جنازة «أحمد بن حنبل» من النساء والرجال، ويقال إنه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جمع أكثر مما اجتمع في موت «أحمد»، حُزِرَ الرجالُ بألفِ ألفٍ، والنساءُ بستمائةِ ألفٍ، والله العالمُ بيقين الأشياء! <sup>(١)</sup>.

هكذا نعيش خلال هذه الفقرات، في خيال جامع يعيدنا إلى الجو الذي عشناه صحبة ابن القارح في قسم الرحلة، وبهذه العودة نلتقي مع أسلوب الوصف والتراكيب الطويلة في سجع لا يمجج الذوق، لكن ما إن وصل أبو العلاء إلى نهاية الاستطراد، كما يلاحظ من النص، حتى انساق إلى الأسلوب العلمي التقريرى وهذا عكس ما وجدنا في القسم الأول من الرسالة حيث يحاول أبو العلاء، تجنب الأساليب العلمية والطرق التقليدية، مستعيناً بنسيج الخيال في القص والحوار، وإن لاحظنا أنه كثيراً ما كانت تخرج الأساليب المعبرة عن هذه الانتقادات المستطردة من النسق الوصفي الذي حاول التزامه، فتأق مغايرة، تخضع لطبيعة الموضوع الذي تتحدث عنه. فتراه في «الوحدة» المتكاملة المستقلة، نسيباً مثلاً، وحدة حوار ابن القارح مع شاعر، ينتقل من أسلوب القص الوصفي إلى أسلوب علمي تقريرى، تبعاً لنوع الاستطرادات التي يسوقها كما في النص التالي، حيث يستطرد أبو العلاء أثناء حوار ابن القارح مع الأعشى إلى تحقيق لغوى بصدد كلمة وردت في شعره.

«فيلتفت إليه <sup>(٢)</sup> الشيخ [ابن القارح] هَسًا بَسًا مُرتاحاً، فإذا هو بِشَابِّ غُرَاقِ،

(١) لعل أبا العلاء استعمل العبارة « والله العالم بيقين الأشياء » تلميحاً إلى أنه لا يصدق الأعداد المذكورة، وأن فيها مبالغة، لذلك جعلنا في آخر الجملة نقطة تعجب (ا).

الرسالة من ص ٤٨٣ إلى ٤٨٧.

(٢) الضمير يعود على ميمون بن قيس الأعشى، من الطبقة الأولى في الجاهلية. أدرك الإسلام فرحل إلى النبي فصدته

عَبَّرَ فِي النَّعِيمِ الْمُنَاقِقِ<sup>(١)</sup>، وَقَدْ صَارَ عَشَاهُ حَوْرًا مَعْرُوفًا، وَانْحِنَاءُ ظَهْرِهِ قَوَامًا مَوْصُوفًا. فَيَقُولُ:

أخبرني كيف كان خلاصك من النار، وسلامتك من قبيح الشنار؟  
 فيقول: سَحَبْتَنِي الزَّبَانِيَّةُ إِلَى سَقَرٍ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَتَلَأَلُ  
 وَجْهَهُ تَلَأُلُ الْقَمَرِ، وَالنَّاسُ يَبْتَفُونَ بِهِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ: يَا مُحَمَّدُ! يَا مُحَمَّدُ!  
 الشَّفَاعَةُ!! نَمْتُ بِكَذَا وَبِكَذَا. فَصَرَخَتْ فِي أَيْدِي الزَّبَانِيَّةِ: يَا مُحَمَّدُ! اغْشَى، فَإِنْ لِي  
 بِكَ حُرْمَةٌ. فَقَالَ:

يَا عَلِيَّ<sup>(٢)</sup>، بَادِرْهُ فَانظُرْ مَا حُرْمَتُهُ؟

فَجَاءَنِي «عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَأَنَا أَعْتَلُّ<sup>(٣)</sup> كَيْ أَلْقَى فِي  
 الدَّرِكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَزَجَرْتُهُمْ عَنِّي، وَقَالَ: مَا حُرْمَتُكَ؟  
 فَقُلْتُ:

أَنَا القَائِلُ:

أَلَا أَيْهَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّتْ فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا

نَبِيٍّ يَرَى مَالًا يَرُونَ، وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

وهو أكمل الله زينة المحافل بحضوره، يعرف الأقوال في هذا البيت. وإنما  
 أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهديان ناشيء لم يبلغه، حكى «الفراء»<sup>(٤)</sup> وحده  
 (أغار) في معنى غار، إذا أتى الغور. وإذا صحَّ هذا البيت للأعشى فلم يُرد  
 بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد. وروى عن الأصمعي روايتان: إحداهما، أن أغار في  
 معنى عدا عدواً شديداً، وأنشد في (كتاب الأجناس):

فَعَدَّ طِلَابَهَا وَتَسَلَّ عَنْهَا بِنَاجِيَةٍ إِذَا زُجِرَتْ تُغْيِرُ

(١) المنافق، الناعم.

(٢) علي: ابن أبي طالب، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) عتله عتلا، جذبته وجره عتقاً.

(٤) الفراء أبو زكريا: أحد أئمة نحاة الكوفة توفي سنة ٢٠٧هـ.

والأخرى أنه كان يُقدّم ويؤخر فيقول :

«لعمري غار في البلاد وأنجدا»

فيجىء به على الزحاف. وكان «سعيد بن مسعدة»<sup>(١)</sup> يقول :

«غار لعمري في البلاد وأنجدا»

فيخرمه في النصف الثاني»<sup>(٢)</sup>.

بعد هذا الاستطراد الذي نقل أبا العلاء إلى أسلوب علمي تقريرى بالسند والنعنة : «حكى الفراء»، «روى عن الأصمعي . . .» «أنشد في . . .» وإلى بث تحقيق لغوى يتعلق بلفظ «أغار»، يعود فيستأنف بأسلوبه الخيالي القصص والوصف.

#### الخلاصة :

أعطى الفصلان السابقان صورة عامة عن مضامين رسالة الغفران، والمباحث التي قامت عليها، وعن المنهجية التي خضعت لها. وقد حاولنا تحليل تلك المواضيع وتتبع خطوات أبي العلاء ومنهجية فاستخلصنا أن التعاليق النحوية والصرفية والشروح اللغوية والانتقادات السياسية والمذهبية لم تكن لتتوارى خلف الإطار الفني الذي ابتكره أبو العلاء. وأنه وإن حاول جاهداً، بالقسم الأول من الرسالة، سكبها في هيكل قصصي، يميزها عن الطرق التقليدية المعهودة، انساق إلى استعمال الأسلوب العلمي التقريرى البعيد عن الخيال المبدع. كما لم تكن أجوبته عن أسئلة ابن القارح لتسلم من صدى نسيج الخيال المبدع الذي كان يغذيها فتشرف من ثنايا الأجوبة أساليب الوصف والحكاية.

لقد نتج عن هذا التمازج بين الصنفين فن أدبي متميز فرض كل من مضمونه ومنهجيته أسلوباً خاصاً من التراكيب، ولغة علائقية متميزة.

(١) الأخص الأوسط.

(٢) رسالة الغفران من ص ١٧٧-١٨٠.

هكذا تقرر لدينا أن لغة الغفران يجب أن تحظى بدراسة تعمل على إبراز أهم الميزات التي تختص بها التراكيب والجمل والمفردات، وهذا ما ترمى هذه الدراسة المتواضعة إلى تحقيقه.

obaidi.kanad.com